

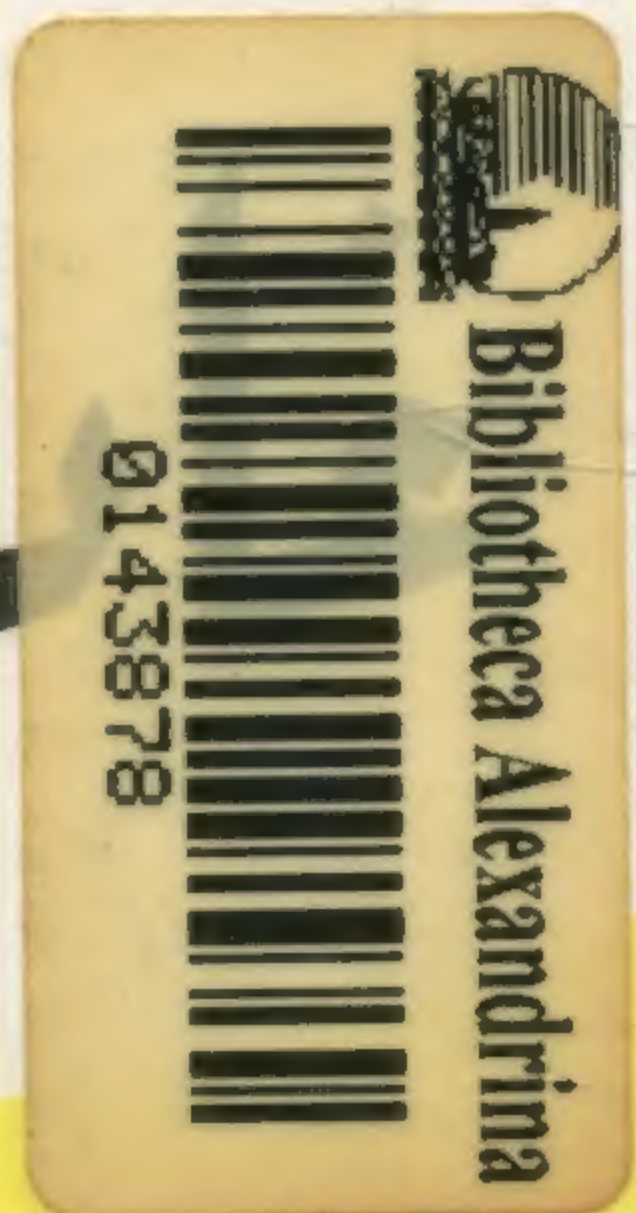
اقراء

على الحمام

هـ ر س



دارالمعارف



اقرا

[٨٧]

غادة رئيس

على الحمام

غادة رشيد



دارالمعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة
من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ
أبناء الشعوب العربية. وأن يتفهموا، وأن
تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والنظموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التي نعيشها.

طه حسين

في اليوم الثاني من شهر يولية سنة ١٧٩٨ كانت الشمس
تدرج من خدرها ، فترسل أشعتها فوق النيل براقه وهاجة
كالذهب النضار ، وقد تكسرت أمواجه وهبت عليه نسمة
شمالية وثيدة الخطا ، بلل البحر الأبيض أذيالها بمائه ،
ونفحها ببخاره المملوء بعناصر القوة والحياة .

وكانت مدينة رشيد في هذا الصباح جاثمة فوق الشاطئ
الغربي ؛، بعظمة منازلها وارتفاع مآذنها ، تنعم ببلدة الهدوء
الذي احتواها في أثناء الليل ، إلا ما كان من العملة الذين
اتجهوا أفواجا إلى مضارب الأرز وإلا ما كان من زمر
الفلاحين الذين قدموا من الشمال والجنوب لبيع حاصلاتهم
من الخضر والفاكهة ، واللبن والبيض والدجاج ، وقد أخذ
فتى غص الشباب يرسل صوته عذبا مشجيا بأغنية يذكر
فيها ما يبذله من الجهد لجمع مهر حبيبة فؤاده ، ثم يتم
الأغنية بأن كنوز الأرض وثروة « البك الكبير » بمصر
لا تكفي مهرا لهذا الجمال الرائع والحسن الفتان . ويسمعه
بعض النساء والعذارى اللاتي بكرن إلى النيل لغسل ثيابهن

وملء جرارهن ، وقد انتثرن على شاطئه في ثيابهن الزاهية
الألوان كأنهن عقد اختلفت حباته حول جيد الحسناء .
وقد زاد جمال الصبح في جمالهن ، وأمن نظرات العيون فكشفن
عن سوق خدال ، ومعاصم رخصة صافية البياض ، لولا
ما يحبسها من حجول وأساور لسالت في الماء ، كما يسيل الماء .
ضحكت إحداهن في دلال وعجب ، وقالت لإحدى
صويحباتها :

— أسمعين غناء هذا الفلاح الأبله ؟ فأجابت :
— لعله يا فاطمة يتغزل في جاموسة لأحد جيرانه يريد
شراءها . فأسرعت فتاة لاتعرف مكر النساء ولا أساليهن ،
تقول في سداجة :

— ولكنه يصفها بأنها سوداء العينين ، صغيرة الأذنين !
فأرسلت فاطمة ضحكة مغرية الرنين وقالت : إنها الجاموسة
بعينها كما قالت سعاد ؛ وهي التي من أجلها يكدر علينا
هذا الفلاح الخافى جمال هذا الصباح بصوته المنكر . من
أين يأتي هؤلاء الفلاحات الجمال ؟ ولو قدر لمن شيء
منه لطمسهن ببلاهن وقذارتهن ، وجهلهن بطباع الرجال .
إن الجمال مهارة قبل أن يكون خلقة وفطرة . والمرأة التي
لا تستطيع التعبير بعينها وابتساماتها ، وأسارير وجهها
عما تحب وتكره ، والتي لم تدرس طبائع الرجل ، ولم تعرف

مواطن ضعفه وغروره ، لن يكون لها حظ عند زوجها ،
ولو بلغت في الجمال ما بلغت زبيدة بنت البواب .

ارتفعت الشمس وعاد النساء يجراهن ، واستيقظت
المدينة الآهلة بسكانها ، الزاخرة بتزلائها من جميع أقطار
الشرق ، فقد بلغت رشيد في هذا الحين شأواً بعيداً من الثروة
واتساع التجارة واستبحار العمران .

وكانت شوارعها ضيقة ملتوية ، تقوم على حافتيها
منازل بنيت بطوب صغير الحجم أجيد إحراقه ، حتى
أصبح كالحجر الصلب . وأعظم ما كانت رشيد تزهى به
شارعان عظيمان ، أحدهما شارع البحر ، والثاني شارع
مواز له يبتدىء من مسجد المحلى ، وينتهى جنوباً بالمسجد
الجامع المسمى بمسجد زغلول ، وهو من المساجد النادرة
المثال بمصر ، تزيد رقعة على رقعة الجامع الأزهر ، به
مساكن لطلاب العلم الغرباء . وكان يلتقى الدروس به طائفة
من كبار علماء المدينة ، أشهرهم الشيخ أحمد الحضري ،
والشيخ إبراهيم الحارم ، والشيخ محمد صديق .

وكان يسكن عظماء المدينة وكبار تجارها بشارع دهليز
الملك ، وهو يبتدىء من الغرب بمسجد العرابي ، وينتهى
في الشرق إلى النيل .

وكان يسكن بهذا الشارع عثمان نجبا حاكم رشيد من

قبل مراد بك ، وكان رجلاً فاتكاً بطاشاً ، ظالماً جماعاً
للأموال أين وجدها ومن أى طريق وصل إليها . وكان به
منزل محمد بدوى چوريجى سردار مستحفظان ، والسيد
محمد البواب ، والسيد إبراهيم الجمال ، — وهما من كبار
تجار الأرز بالثغر — والحاج عبد الله البربير شاعر المدينة
وزجالها ، إلى غير هؤلاء من الأعيان والعلماء والكبراء .
وميناء المدينة أشد أحيائها ازدهاماً وأكثرها جلبه وصخباً ،
تراصت به السفن آتية من أقطار الشرق والغرب ، وسار
ملاحوها في شارع البحر يلغطون ، وقد اختلفت أزيائهم
وألوانهم . واختص شارع البحر بمضارب الأرز
فأطل عليه منها أكثر من ثلاثين دائرة ، يبيض فيها الأرز
بطواحين تدور بالخليل والبقر . وكان بهذا الشارع متجران :
أحدهما لفرنسى يدعى مسيو فارسى وهو يتجر في الحبوب
والعقاقير الطبية ، والثانى لإنجليزى يتجر في المنسوجات
الحريرية والصوفية ، هو مستر أوليشر نيكلسون . وقد كان
عند بدء تاريخنا هذا في سن الأربعين ، رحب الجسم
قوى العضل ، يدل تآلق عينيه الزرقاوين على قوة العزم ،
ويوحى انبساط أسارير وجهه بالوداعة واللفظ وبالإلمام
دواعى الصدر . وكان كامل الثقافة وافر العلم بأحوال الدول
والأمم .

٠ في ضحوة هذا اليوم جلست زبيدة بنت السيد محمد
 ٠ الباب في غرفة نومها ، ثم قامت واتجهت إلى المرأة ذاهلة
 ٠ حاملة : فرأت وجهاً كأنه إشراقة الصبح أو صفحة البدر ،
 أو تبلج الحق بين ظلمات الشكوك . به عينان حوراوان
 امتزجت بهما صولة السحر بنشوة الخمر ، فكانتا شباك
 الفتنة لصيد القلوب . وأنف أحسن الله تقويمه وأبدع تكوينه
 فزاد وجهها جمالا . وثغر درى ياقوتى ، تهيم به الشفاه ،
 وتحوم حوله القلوب ظمأى ، كما تحوم طيور الصحراء
 حول معين الماء العذب النмир . ثم رأت صدراً صافى البياض
 ممتلئاً بالأنوثة الناضجة ، يعبث بالعقول ، كأنه سبيكة
 من لحين ، استعارت من الزئبق لينه فظهرت ناصعة رجراجة .
 ٠ كانت زبيدة في الثامنة عشرة من عمرها ، وقد تفتح
 ٠ فيها الشباب كما تفتح زهرات الربيع ، وجالت بنفسها خواطر
 ٠ واثارت بها نزغات لم تعرفها في عهد الطفولة الغريرة ، وأحست
 بما تحسه الفتاة في هذه السن ، من ميل متدفقة يكبتها
 الحياء وتكظمها بقية من أدب ودين .

كانت زبيدة فارعة القد ممتلئة الجسم ، جرى حديث
 جمالها الفاتن من فم إلى فم ، وتنقل من دار إلى دار ،
 حتى أصبحت مضرب المثل بين فتيات المدينة ، ومقياس
 الجمال كلما عرض ذكر الجمال . وتهافت أبناء التجار

والأعيان والحكام على خطبتها والتقرب من قدس حسنها ،
ولكنها كانت ترد كل توسل بالإدلال ، وكل إغراء بالرفض
والإباء . ولم تكن أمها لتستطيع أن تعمل شيئاً أمام هذه
الحسنة الجامحة ، ولم يكن أبوها - وهي وحيدته - ليرد
لها كلمة أو يقف بينها وبين ما تكره أو تحب . كانت
الفتاة المدللة العابثة المتحكمة ، وقد ملأتها ثقها بجمالها كبراً
وغروراً ، وزادتها ثروة أيها الضخمة ميلاً إلى الإسراف ،
والتأنق في الرفه .

جلست زبيدة أمام مرآتها ورأت ما رأت ، فابتسمت
ابتسامة لؤلؤية ، ثم عبست وتجهمت أساريرها ، ثم رفعت
حاجبها وشخصت بعينها كالمفكرة المأخوذة ، ثم قالت
تحدث نفسها :

وليم تكذب « رابحة » العرافة ؟ أليس في حسنى ما يدل
له كل عزيز ، ويخضع لسلطوته كل ذى نفوذ وسلطان ؟
ألم يسر ذكر جمالى مع كل سائر ؟ ويطر مع كل ريح ؟
نعم إن رشيد مدينة نائية عن القاهرة مقر عظماء الحكام
وكبار الأمراء ، ولكن الملاحين الذين يسافرون إليها في
كل يوم لا يزالون يحفظون ويتغنون بتلك الأغنية السائرة ،
التي نظمها سرّاً الحاج عبد الله البرير والتي فيها :
الحسن كله في رشيد في بيت وإن كنت تنكر إسأل البواب

لا . لا . لن تكذب رابحة ، وهى لم تتكهن بشيء
مستحيل أو بعيد المنال . ثم ضحكت ضحكة اليأس
والاستخفاف وقالت :

. ألسنتى أتشبث بنحيوط من الوهم ، وتعبث بنى عاصفة
هوجاء من الخيال الكاذب ؟ من أنا حتى أكون حاكمة
مصر ؟ بنت السيد محمد البواب أحد تجار الأرز برشيد ،
ها ها . وهذا كل ما أقدمه من اللرائع لأكون أول سيدة
بمصر ؟ ! لا يا زبيدة هذا لا يكفى . ثم إننى جميلة فائقة
الحسن فاتكة اللحظات ، رائعة القسمات ، لم تطلع الشمس
على أنضر منى وجهاً ولا أملد عوداً ، ولا أشد إغراء وفتنة !
وهذا أيضاً لا يكفى يا زبيدة ، فإن منازل الرفعة لا تنال
بالجمال ، وحكام مصر وبكواتها يتصاهرون فيما بينهم
لحصر الملك فيهم ، وجمع السلطة فى أسرهم . لا يغريهم
سحر العيون ولا اعتدال القدود .

حقاً إننى أتعلق بأمل خداع وغرور مضلل ! ! وسأسقط
من القمة التى أنشبت فيها أظافرى مهشمة العظام ، مفككة
الأوصال . حيثذ سافيق بعد أن قضيت زهرة شبابى فى
جنون وأحلام ، وحيثذ سأنظر حولى وقد بلغت الثلاثين
أو نحوها ، فأجد الخطاب وقد طاروا وتركوا عش فانتهم
حطاماً مبعثراً . ثم أنظر فى هذه المرأة التى أمامى فلا أرى

فيها تلك الفتاة الناعمة التي أراها اليوم ، ولكنى أرى فيها امرأة سواها ، دبّت في وجهها الغضون ، وخمد من عينيها ذلك البريق الساحر اللماح .

لا . لا . لعن الله تلك العرافة ، ولعن الله اليوم الذى قابلتها فيه !

ثم أطالت النظر في المرأة ، فرأت فحصة رائعة الحسن فى خدها الأيمن ، فابتسمت ، فزاد الابتسام تلك الفحصة ظهوراً وحسناً ، فعاودها الأمل ، ورفعت رأسها فى شمم وعزة ، وهمست :

ولكن العرافة لا تكذب . لأننى لم أعرض عليها كفى ، كنت جالسة بجانب أمى فجذبتها ونظرت فيها لحظة ، ثم صاحت دهشة حائرة ، وكانت الحيرة تبدو فى عينيها حقيقة لا تكلف فيها ، صاحت : لأننى لم أر فى حياتى هذا الخط فى كف غير كفك وكف إبراهيم بك الكبير . إنه خط الملك ! إنه خط الملك ! ! خط العظمة ! خط الحكم ! ولكن ما هذا يا ربى ؟ ! سبحانه لا راد لمشيئتك ، ولا معقب لحكمك ! تباركت لك الأمر ، وييدك الملك ، وأنت على كل شيء قدير ! ! انظرى يا زبيدة ، ما أنا بمخطئة . انظرى يا مليكتى ! أترين هذا الخط الذى يمر بأسفل الإبهام قوياً بارزاً ، ثم لا يقف عند ذلك كأغلب الأكف ،

بل يمتد إلى نهاية الأصابع الأخرى حتى يصل إلى الخنصر .
 هذا هو خط الملك ! ! انظري إلى كفى ، فهل تريته ؟
 ثم إلى كف أمك فهل تجددين له أثراً ؟ ! ثم إذا شئت
 فانظري إلى أكف أهل رشيد جميعاً ، وأنا زعيمة بأنك لن
 تعثرى على مثله .

دهشت ودهشت أمى ، وقهقهت قهقهة المدهول وقالت :
 ما هذا يا رابحة ؟ ما هذا الكذب الصراح ؟ كنا نرضى منك
 بدون هذا . وأين نحن من الحكم ومن مراتب الحكم ؟
 إن الحكم في مصر قسمة بين البشوات والبكوات ، ولن
 يناله مصرى أنبتته أرض مصر : إننا نعيش في بلادنا غرباء
 نتلقف فئات ما يتركون . إن ابنة عثمان خجاً تألف أن تزور
 بيت رشيدى كيفما علا مقامه ، وعظم جاهه . إنها لا تسميننا
 إلا بالفلاحين ، كأن الله خلقنا من طين وخلق الترك من
 مسك وكافور . بنتى تحكم مصر ؟ ! دعها أولاً تحكم
 رشيد ، أو شارع دهليز الملك ، قبل أن تطيرى بها في جو
 الأحلام والأكاذيب . لعلك تظنين أنه كلما عظمت
 الأمنية عظم الأجر . ولكن الأمانى المعقولة شيء ، وهذا
 الجنون الجديده شيء آخر .

قالت أمى هذا ، فتطاير الشرر من عيني رابحة ، ووضعت
 يدها في جيبها في حلق وغضب . فأخرجت أنصاف الفضة

الى كانت أمى أعطتها إياها ، وقذفت بها فى وجه
 أمى وهى تصبح : جنون جديد ! هذه أنصافك يا سيدتى
 فأنى فى غنى عن مالك بما وهب الله لى من علم ومعرفة .
 وإذا كنت تظنين أن تكهنى دجل وخرافة ، فلم دعوتى ؟
 لعل الذى جراك على أنى أتقبل أجراً لقاء الإفضاء ببعض
 ما يتكشف لى من ملامح الغيب . والله لولا مس الحاجة
 ما تدليت إلى هذا الحضيض ، ولا سمعت اليوم من سيدتى
 نفيسة التى تظننى امرأة أفاقة أفاكة ، هذا السب الشنيع ،
 حقاً إن كل شىء يمتن إذا بيع بالمال : فالجمال يمتن
 إذا بيع بالمال ، والجاه يمتن إذا بيع بالمال ، والعلم يمتن
 إذا بيع بالمال .

ثم زایلها الغضب دفعة واحدة والتفتت إلى وحنى رأسها
 فى إجلال وخشية وقالت : والآن تحيتى وخضوعى لمولاتى
 زبيدة ملكة مصر ، ثم انفلتت كما ينفلت الطائر من الشبكة
 فلم نر لها أثراً .

هذا ما جرى من رابحة العرافة ، أذكره كلمة كلمة
 كأنما أقرأه فى لوح مكتوب . فهل كان كل ذلك كذباً
 وزوراً ؟ وهل أنا مخاطرة بحياتى وجمالى وشبابى ، فى سبيل
 كذب وزور ؟

إن الزهرة إذا تفتحت اليوم ذبلت غداً ، والبدر إذا

ثمَّ كماله درج إلى النقص والمحاق .. وهل بعد بلوغ الفتاة الثامنة عشرة غاية للنضج وتفتح الأنوثة وتفجر الميول ؟ فإذا أهملها الخطاب في هذه السن ذوى عودها ونجبت نارها ، وذهبت بشاشتها ، كالثمرة إذا لم تجن والزرع إذا لم يحصد . هكذا قضت الطبيعة القاسية المستبدة بكل حي ، فقد جعلت لكل شيء أواناً ، فإذا ذهب أوانه تبدل خلقاً آخر ، فزهدت النفوس وتقحمت الأعين .

إن ابن خالتي محموداً العسال فتي يزدهى به الشباب ، وتعتر به الفتوة . إنه زينة الأنداد وفخر الأمثال : جمال وجه إلى كرم خلق ، إلى جرأة وإقدام ، إلى كياسة وحزم ، ثم إلى ثروة وجاه عريضين . وما رأيته مرة إلا اختلج قلبي له ، وهفت روي إليه ، وأحسست في شفتي بدبيب يكاد يدفعهما إلى تقبيله ، وجرت في جسمي نشوة عجيبة لا أعرف لها كنهاً ولا أستطيع لها وصفاً . أهذا هو الحب الذي يتغنى بأناشيده الرجال والنساء ؟ إن كان إياه فإنه حب عفيف تحكم في نفسي ، وملاً على يقظتي وأحلامي . أما محمود فلم يدع وسيلة يدلي بها إلى إلا اتخذها ، ولم يترك كلمة من كلمات الغرام إلا سكبها في أذني . يغري مرة ويتذلل أخرى ، ثم يصف ما يلاقيه من الهجر وصفاً يستزل العصم ، ويهز الجبال الشم . وأنا أنصت إليه في

وجوم وذهول ورعب ، وقلب مضطرب خفاق ، فإذا
زادت بي ثورة الوجد كدت أثب عليه فآلتهمه ضمًا وتقبيلا
لولا أطياف ذلك الخيال الخداع ، والأمل الختال ، التي
كانت تسرع إلى نفسي فتجتذبنني من السماء إلى الأرض ،
وتطحن نار نزواتي ، وتهدئ من خفقات قلبي . ذلك الخيال
الذي يصور لي الملك الموهوم ، والذي يوسوس إلى أن من
قسم لها أن تكون حاكمة مصر لا ينبغي لها أن تصغي إلى
كلمات الغرام من أي شخص ، ولو كان في جمال محمود
العسال ورجولته . أسمع هذا الوسواس الخناس فيعود إلى
هدوئي ، وأرده عني بكلمات تقتل الأمل وتجتث الرجاء ،
ويعلم الله أنني أقولها وكل حرف منها سكين في فؤادي وغصة
في حلقى ، إنه زهد في جميع الفتيات لأجل ولو أنه رفع
إصبعاً لأجملهن لطارت إليه شغفاً ، واهتزت كالعصفور
للقاته شوقاً ، ولكنه أبي أن يتزوج إلا بي . ذكرت له أمه
بنت الشيخ الجارم « رقية » - وهي من هي في جمالها ونحفة
روحها ومنصب أبيها - فأبي . ثم ذكرت له بنت السيد
أحمد المحروق زوج خالتي - وهي بنت الشرف والسيادة
والجاء - فأبي ، فهل حكم عليّ وعليه أن نبقى هكذا محرومين
من ثمار هذا الحب ، ومن تلك الجنة الدانية القطوف ،
وبيننا وبينها كلمة تقال ؟ !

وما كادت تنهى من تأملاتها حتى رأت خادماً الخاضع
 « سروراً » يقبل نحو غرفتها ويقول : إن سيدى محموداً
 حضر منذ ساعة ، وهو جالس مع سيدتى الكبيرة ، وقد
 أرسلتنى لأدعوك إليهما

فخرجت تيمس فى دلال وعجب ، حتى نزلت إلى أمها
 فى الطبقة الثانية من المنزل ، فلما رأتها أمها قالت :
 — أهلاً بعروسى الحسنة . تعالى بجانبى يا فتاتى وأنصفينى
 من ابن خالتك هذا ، فقد حطم رأسى بكثرة حديثه هذا
 الصباح ! ولولا حبي له وإعجابى بخلقه وأدبه ورجولته ،
 لكان لى معه شأن آخر .

فحيت زبيدة ابن خالتها بعينين مطبقتين تصنعت
 فيهما الحياء والخضوع ، ثم جلست إلى جانب أمها ورفعت
 رأسها قليلاً نحو محمود ، وقالت :
 — كيف حال خالتى زينب اليوم ؟

— الحمد لله ، ولكنها لا تزال عاجزة عن المشى ، ولا تزال
 تقاسى آلاماً مبرحة فى ساقها ، وبخاصة فى الليل .
 — كانت هنا بالأمس « بدور » الدلالة وقالت : إنها
 كانت أصيبت بهذا المرض ، ولم يشفها منه إلا دهن ساقها
 بزيت ساخن خلط به دقاق الفلفل الأسود ، والقرفة والمر .
 — عملنا يا زبيدة كل شيء ، ولم نترك فى تذكرة داود

علاجاً إلا جربناه . واضطرت آخر الأمر إلى استشارة الطبيب الفرنسي « شوفور » فقال لي : إنه مرض في المفاصل ، وإن له مرهماً في فرنسا ، ولكن هذه الحرب بين الدول سدت سبل البحار ، فلم يصل إلى مصر إلا قليل جداً من البضائع التي كانت تفرق الأسواق .

كانت نفيسة أم زبيدة جالسة تعبث بسبحتها ، وهي بادية العبوس تكاد تحترق غيظاً من الحديث في السفن والتجارة ، لأنها كانت تود لو أن محموداً قذف بنفسه على قدمي زبيدة يبللها بدموعه ، ويشتكى لها لوعة الحب والغرام وليس أشهى لدى المرأة في سن اليأس من أن تشهد منظراً للحب ، أو تسمع عنه حديثاً . لقد حرمتها الطبيعة الحب الذي لم تنس حلاوته ، فلا أقل من أن تراه في غيرها . ولما رأت الحديث تافهاً ، خطر لها بحق أن وجودها قد يكون سبباً في كبح جماح عاطفة محمود فقامت مسرعة وهي تقول : يا حسرتي ! لقد نسيت أن أنظر فيما تعده الطاهية لغداء اليوم . ثم ذهبت نحو المطبخ ولقبقابها العالي جلبة وقعقة ..

وهنا نظر محمود إلى زبيدة في ذل واستجداء ، وقد أحست في لمحة خاطر ما وراء هذه النظرة ، وهدتها فطرتها النسوية الماكرة إلى السكوت حتى تتفتح لها السبيل التي

يجب أن تسلكها . فأطرقت إطراق المذنب الخاضع الذى
وطد النفس على تلقى ما يقذف به من تهم . وهنا قال محمود :
لقد وعدتني فى آخر لقاء لنا يا زبيدة أنك ستفكرين
فى الأمر ، وستصارحينى بما انتهى إليه رأيك ، وسألتك
الرحمة بى فيما تفكرين ، والإشفاق علىّ فيما تبتين . والله
ما لقيتك بعدها إلا خفت أن أسألك عما هداك إليه التفكير
من الحكم لى أو علىّ ، لأنى رأيت من الخير لى أن أعيش
فى نعمة من الشك ، وأن أستمّر فى مداعبة أمل واهن
أضعف من أنفاس المحتضر . مضى شهران يا زبيدة وأنا فى
هذا الشك ، فهل لديك اليوم كلمة أقوى بها أملى ، وأتوسم
فيها وجه سعادتي ؟ لا تقولى : « لا » يا زبيدة ، فإنه لم
يبق لى إلا وتر واحد ضعيف من أوتار الأمل ، أعزف
عليه أنشودة غرامى ، فإذا قطعتة يا زبيدة سكنت أنشودتى
وسكنت معها نبضات قلبى . قولى : « نعم » يا حبيبتي ،
وإذا عز عليك أن تقوليها فلا تقولى « لا » .

كانت لواعج الحب تضطرم فى نفس زبيدة ، كانت
تحس كأن سكاكين مثلمة تحز فى فؤادها ، لأنها كانت
تهوى ابن خالتها وتراه المثل الأعلى للزوج والحبيب ، وتتمنى
لو ألقت بنفسها بين ذراعيه ، ومزجت دموعها بدموعه .
ولكن المسكينة كان لنفسها ناحيتان : ناحية يتحكم فيها

الوجدان وتطغى النزوات ، وناحية ألقت بزماتها إلى العقل واستسلمت إلى سلطان الإرادة . وطالما تحكمت الثانية في الأولى ، وأسكتت صيحاتها . فالتفتت إليه وقالت :

— أنت لا تشك يا محمود أنى أحبك كما أحب أنى
عليًا ، وأنى كلما فكرت فى أمرك ارتفع فى نظرى هذا
الحب الأخوى الطاهر الشفاف على حب الزوجة لزوجها ،
فأضن به أن يذهب من يدي لأستبدل به حبًا ماديًا أرضيًّا ،
قلقًا مضطربًا ، ربما دام وربما لا يدوم .

— حبًا قلقًا مضطربًا ؟ إن حبي يا حبيبتي لو تجسم
لكان ركانة فى الجبال ، وصلابة وبأسًا فى الحديد . إنه
قطعة من الروح وفلذة من القلب ، فإذا زال زالت الروح ،
وذهب القلب معه . إن الحب الأخوى نفحة وراثية ، والحب
الغرامى نفحة روحانية ، وشتان ما بين النفحتين ! لا تغالطيني
يا حبيبتي ، وإذا رضيت أن أكون لك أنحًا فأطلقى لهذا
الحب قليلًا من فضلة العنان ، ليكون حبًا قدسيًا تتعاق
فيه الروحان ، وتتلاقى الشفتان .

— هل سألت أبى ؟

— لقد أملتته حتى إنه كان يفر منى . ولما ضاق بى
ذرعًا آخر الأمر ، التفت إلى حزينًا وقال : « إنك تزيد
فى آلامى يا بنى بكثرة الإلحاح ، لقد ذكرتكم أمامها

مرات ، ويعلم الله أنى لم أترك وصفاً مما يرغب النساء في الرجال إلا خلعته عليك ، ولكنى لم أر منها اتجاهاً إليك ولا رغبة فيك . وقد عاهدت نفسي ألا أجرى إلا على ما أرادت ، وألا أدفعها إلى أمر لا ترغب فيه ، فإذا رضيت بك زوجاً فلأننى سأكون أسعد خلق الله بهذا الزواج . ، أما أمك : فقد قضيت معها ساعة اليوم فلم أجد منها إلا موافقة تامة ورضاً كاملاً ، غير أنها كانت كأبيك تخشى أن تلزموك إرادة أو تحملك على عزيمة ، فالأمر بين يديك يا زبيدة . إن في فمك كلمة هي الحياة أو الموت ، فأشفقى على ابن خالتك المسكين ! !

نظرت إليه زبيدة في شيء من القلق مكتوم وقالت : لم يبق إلا رضاي ؟ ! وهذا شيء هين ، ولن يخلو زواج من عقبات ، وهذه عقبة صغيرة أسأل الله أن يقدرنى على تذليلها ، فدعنى الآن يا محمود ، فإن لكل شيء أواناً ، والذي سطر في لوح القدر سيكون ، ولا بد أن يكون . وهنا ظهرت عند باب السلم الشبيخة أمينة ، وهى امرأة كفيف تحفظ القرآن وتقرأ في بيوت أغنياء المدينة ، وكانت تقودها فتاة صغيرة قلرة الجلباب حافية القدمين ، أصاب الرمد عينيها بدموع لا تنقطع ، فأوشكت أن تشبه من تقودها . دخلت الشبيخة أمينة وهى تقول :

صبحكم الله بالخير جميعاً وكفاكم شرور هذا الزمان .
 إن المدينة اليوم في ثورة جامحة ، فإن عثمان خجاً لم يكتف
 بما يفرضه من الضرائب والمكوس والمصادرات في كل يوم ،
 حتى ابتكر ضريبة جديدة لا تترك للفقير ما يقتات به ،
 ولا تبقى للغنى ما تبقى له من قليل .

وهنا ظهر الحزن والهم على وجه محمود العسال ، ونهض
 واقفاً وهو يقول : لا يمكن أن نعيش يوماً آخر مع هؤلاء
 المماليك . ثم حيا زبيدة ومال إلى أذنها وهو يهمس : طال
 الصبر يا زبيدة فإلى متى ؟ ثم أسرع نحو الباب .
 وعندئذ قامت زبيدة متثاقلة حزينة ، فهرعت إلى غرفة
 نومها لتكتم آلامها ، وما وصلت إليها حتى رمت بنفسها
 على السرير وكتمت أنفاسها الحرى في وسادة من الحرير ،
 وأخذت تبكي بكاء مكتوماً اهترت له أضلاعها في خفقات
 مضطربة ، وهي تقول : أحبه . . . أحبه . . .

٢

وصل محمود إلى الشارع فرأى الناس يتسابقون إلى شارع
 زغلول ، وفي كل وجه صورة مخيفة للغضب والحزن وحب
 الانتقام . وكانت العين لا ترى فيهم إلا أشباحاً للفقر والجوع

والذل ، مشى محمود في إثرهم حتى إذا وصلوا إلى الشارع رآهم يتجهون نحو مسجد زغلول ، فhez رأسه حزينا وقال : مسكين هذا المسجد ؛ أصبح من يلتجئ إليه من المظلومين أكثر ممن يقصده للصلاة والعبادة ، والناس لا يجدون غياتا في هذه الأيام إلا العلماء والأعيان . وويل لهؤلاء العلماء والأعيان ! إنهم أصبحوا أضعف من ذات خمار أمام ظلم عثمان خجا وظلم أعوانه وعصابته . اذهبوا أيها المساكين اذهبوا ، فإن عثمان خجا لن يرضى إلا بامتصاص آخر قطرة من دمائكم ، اذهبى اذهبى أيتها الضحايا المنكودة ، فإن مراد بك إن رضى بقضم اللحوم فإن وكيله خجا لا يشبعه إلا التهام الجلود .

ثم يأخذ محمود سمته إلى شارع البحر ، ويميل إلى متجر أوليفر نيكلسون فيراه جالسا ومذبته في يده ، يذود بها الذباب عن وجهه ، وهو جهم الوجه حزين النفس يظهر عليه القلق والاضطراب . وكانت الصلة وثيقة العرا بين محمود ونيكلسون لتشابه في أخلاقهما ، وللمعاملة المتصلة بينهما . فقد كان لمحمود متجر للمنسوجات الصوفية بالقاهرة ترك الإشراف عليه لابن عم له ، فكان يشتري البضائع من نيكلسون ويبعث بها إلى القاهرة ، وكان لنيكلسون اتصال وثيق أيضا بأسرة البواب ، فقد كان له أخ يتجر

في الأرز بدمشق فكان يبعث إليه به من مضرب البواب
لثقتة بأمانته وحسن معاملته . لذلك نمت الصداقة بين
الأسرتين ، فكانت بنته لورا نيكلسون لا تجد لها في رشيد
صديقة أوفى ولا أكرم صحبة من زبيدة ، فأكثر من
زيارتها والالتئاس بها .

حيا محمود صاحبه ، وجلس وهو يلهث من الحر والتعب
وقال :

— أرايت الزمر الحزينة البائسة وهي تهزول مستغيثة مولولة
إلى مسجد زغلول ؟

— نعم يا محمود رأيتها ، وقد زادني مرآها حزناً على حزن ،
وألماً على ألم . إن هؤلاء المماليك جزارون لا يحسنون الذبح
لأنهم مصابون بجنون التدمير والتخريب ، وكم لاقت منهم
مصر وتلاقى إن امتد بهم الحكم وطاؤهم الزمان . إن مصر
اليوم تحكمها طائفة من اللصوص الأشقياء الذين لا يقف
شيء أمام جشعهم ، ولا يزعمهم شرف ولا دين ، نهبوا كل ما في
أيدي المصريين ولم يعطوهم شيئاً ، فالوباء المتفشى في
الناس أشد من ظلم المماليك ، والجهل الذي عطل عقولهم
أشد من هذين .

— هذا بلاء محيق لا كاشف له إلا الله ، فالناس يثورون
في كل يوم ، ولكنهم لا يلاقون إلا الجلد والقتل ، والتعذيب

وهتك الحرمات ، حتى لقد فر كثير من الأسر إلى دمياط والقاهرة لعلهم يجدون متنفساً .

— يفرون من المقلاة إلى النار ، كما نقول في بلادنا .
الممالك ممالك في كل أرض وبلد . اشنقوه ، اقتلوه ، احرقوه . كلمات خفت على ألسنتهم وتكررت كأنها تراتيل القساوسة . رأيت كيف يسيثون إلى الإفرنج في كل حين ، على الرغم من أن لهم قناصل يحملونهم ، فكم صادروا متجر « فارسي » الفرنسي ومتاجر سواه ، وحينما كتبنا احتجاجاً إلى دولنا بأوروبا لم يزددهم هذا إلا إيغالا في العنف وإغراقاً في النكاية .

— إنهم يبغضون الفرنسيين ويحاملون غيرهم أحياناً .
أليك أخبار جديدة عن الحرب بين الدول ؟
لم قرأت أمس في جريدة إيطالية صدرت منذ شهر ، أن العداء شديد مستحكم بين إنجلترا وفرنسا ، وأن الحرب قائمة بينهما على أشد ما تكون عنفاً وقسوة ، وأن أساطيل إنجلترا تجوب البحار لحماية شواطئها وحصر فرنسا وحليفاتها ، ومنع أي مدد يصل إليها ، وأن الفرنسيين بعد أن فتحوا إيطاليا والنمسا وخافتهم بقية الدول الضعيفة في أوروبا ، أصبحوا يصبحون في كل شارع في زهوة وشموخ قائلين : إلى إنجلترا . . . إلى إنجلترا . . . وكلما مر نابليون بونابارت

ذلك القائد الحديد الذى تمخضت عنه ثورتهم من حيث
لا يعلمون ، صاحوا : إلى النصر . إلى إنجلترا . إلى العالم !
— هل تظن أن مصر ينالها شيء من شرار هذه الحرب ؟
— لقد أصابها الشرار فعلا يا بنى ، ألا ترى الكساد
الذى نحن فيه وانقطاع الصادر والوارد ؟

— إذا هجم هذا البونابرت على بلادك ، أتسرع للدفاع
عن حوزتها ؟ وماذا يكون من أمر لورا ؟ أتأخذها معك ؟
إني أرى من الخير أن تدعها عند خالتى أم زبيدة فإنها
تكون إذاً بين أهلها .

— لن أستطيع أن أسافر يا محمود بعد أن أصبح البحر
شعلة من نار ، ثم إني واثق أن بلادى لن تنال ، وأن لها
من قلوب أهلها وشجاعتهم ، سوراً من فولاذ يصد عنها
كل فاتح . إن غزوها محال ، ولكن الذى يهمنى ويقض
على مضجعى ، أن يكون فى الأمر خدعة . والذى ينخيل
إلى أن هؤلاء الفرنسيين يظهرون أنهم يستعدون للهجوم على
إنجلترا ، ليدفعوها إلى التفكير فى حماية ثغورها. والتفرغ
إلى الاستعداد فى بلادها ، وليصرفوها عن النظر فى أية
خطة أخرى . ثم هم من وراء ذلك يتجهون بجيوشهم وأساطيلهم
إلى ناحية لم تخطر للإنجليز ببال . ويغلب على ظنى أنهم
بعد أن عجزوا فى غزو إنجلترا سيوجهون ضربتهم إلى مصر ،

ليسدوا طريق التجارة الهندية في وجه إنجلترا بالسيطرة على البحر الأحمر . وربما خطر لهم ، أن يتخذوا من مصر طريقاً لغزو الهند نفسها . لذلك أعددت لكل شيء عدته منذ أشهر ، فأسرعت في جمع ما على عملائي من ديون ، وعقدت شركة مع عامل متجري « أورلندو » وهو رجل أمين أثق به ، حتى إذا صبح حدسى ، ونزل الفرنسيون ، فررت من المدينة ، وتركت له تجارتي وهو إيطالي لا يمسه الفرنسيون بسوء .

— أنت رجل قوى الخيال يا نيكلسون ، والذي يستمع لحديثك هذا يظن أن أعلام سفنهم تخفق اليوم على ميناء الإسكندرية .

— إن الإنجليز يا محمود قد يصفهم الناس ببطء الفهم ، ولكنهم إذا فهموا لم يخطئوا شاكلة الصواب ، وكيفما يكن الأمر فلست أرى في الحذر والحيلة بأساً ، فالسفينة التي سأسافر بها راسية الآن أمام المتجر ، حتى إذا حانت الساعة نقلت إليها ما أحتاج إليه ، وخرجت من المدينة بلورا على حين غفلة من أهلها . أين تسهر هذه الليلة ؟ — إنني أسهر عادة عند السيد إبراهيم الجمال . حيث نتحدث في التجارة ونتعرف أخبار المدينة وحوادثها .

— إن اليوم عيد ميلاد لورا وقد أعدت لنا الليلة وليمة ،

وألحت على أن أدعوك إليها ، فهل تستطيع أن تزورنا
بعد الغروب ؟

— إنني أسر لكل ما يسر لورا ، وسأكون عندكم في
الموعد الذي ذكرت . وما أتم عبارته حتى سمع ضجيجاً
وصياحاً وجلبة ، فنظر فإذا جمع حاشد كأنه البحر المائج ،
فيه الرجال والنساء والأطفال وهم يصرخون ويولولون ، وأمام
هذا الجمع علماء المدينة وقد اتجهوا جميعاً نحو ديوان الحاكم .
فوثب محمود واندمج بينهم ، فلما انتهوا إلى الديوان زاد الضجيج
وعلا الصياح ، وأخذ الأطفال يصفقون ويرددون عبارات
يسجعونها وينغمونها مثل :

موجه رايحه وحيه موجه غرقنا ظلمك يا خوجه

ومثل :

ما فينا إلا العريان إيش راح نعمل يا عثمان
ودخل العلماء الديوان وهم في حزن وغضب على ما أصاب
مدينتهم ، فلما رأهم عثمان نجبا — وكان متكئاً على أريكة —
لم يتحرك للقائهم وبادرهم قائلاً :

— لقد سئمت هذا اللعبة ومجتها نفسي ، كلما هممت

بعمل في هذه المدينة رأيتم تصدون لمعارضتي ، وتقفون
في طريقي ، حتى لم يبق علي إلا أن أستشيركم في كل خطوة
أنخطوها . فتقدم إليه الشيخ صديق — وكانت إليه زعامة

البلد — وهو عالم تنى زاهد ، ذرب اللسان قوى العارضة ،
يجبه الناس بالحق ولا يخاف فى سبيله أحداً ، فقال :

— يا حضرة الأغا ، كان يجب عليك أولاً أن تقوم
بإجلالا للعلماء وتكريماً لهم ، والعلماء ورثة الأنبياء كما جاء
فى الأثر الشريف ، فالذى لا يبجل العلماء لا يبجل الأنبياء
والعباد بالله ، وإذا رضيت لنفسك بهذا فإننا لا نرضى
أن يقيم بمدينةتنا من يتصف بهذا الوصف . ثم انفجر
صائحاً : قم للعلماء أولاً ، ثم تكلم بما شئت ، فإن لكل
كلام كلاماً .

فأحس الأغا بما يحيط به من خطر ، ورأى أن الشيخ
جاءه من ناحية الدين ، وأن أية كلمة يقولها ستقلب عليه
وبالاً ، فتلعثم وقال : يامولانا ، إن العلماء سادة الناس
جميعاً ، وإنى أول من يتقرب إلى الله بإرضائهم ، غير
أن صياح هؤلاء العوام وما تجرؤوا عليه من قذف الديوان
بالطوب والأحجار ، سلبنى صوابى وقلب ميزان تفكيرى .
ثم أخذ يصفح العلماء فى أدب ورعب ، فابتدره الشيخ قائلاً :
— قلت يا حضرة الأغا : إنك سئمت هذه اللعبة ،
فسميت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى فرضه
الدين على كل مسلم ومسلمة : لعبة . وهذا تعد على الشرع
الشريف ، واستهزاء بأحكامه . واعلم يا حضرة الأغا أننا

سنستمر فيما تسميه : لعبة . ما دمت مستمراً فيما نسميه ظلماً وإرهاقاً ، ثم قلت مستنكراً : إنه لم يبق عليك إلا أن تستشيرنا في كل خطوة تخطوها ، وقد أمر الله أشرف الخلق وسيدهم محمد بن عبد الله ، أن يستشير قومه ، وأين أنت من هذا المقام الأسمى ؟ وإذا كنت تأنف أن تتشبه بالنبي الكريم ، فتلك مسألة أنت تعرف سوء مغبتها . إنك لم تدع في المدينة رطباً ولا يابساً ، ولم يبق في الناس إلا رمق خافت تريد اليوم أن تأتي عليه . إن العلماء يقوزوا وقف الدروس في المسجد وإغلاقه ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . ثم همّ الشيخ والعلماء بالخروج فتشبث بهم عثمان نجداً ، وهو يقول في تعلّم الخبيث اللئيم ، الذي يريد أن يثجل الضربة إلى فرصة قريبة : هذا أمر مراد بك الكبير وليس لي فيه يد ، وسأرسل إلى القاهرة اليوم رسولا لأرى رأيه في الأمر .

فأجابه الشيخ صديق : ترسل أو لا ترسل ، إننا سنذهب إلى بيوتنا وسنغلق أبوابها ، وسنلتجئ إلى الله مستغيثين داعين أن يكشف عنا وعن أهل المدينة تلك العاشية . وبينما العلماء نازلون من السلم إذ هداً الجمع المحتشد حول الديوان ، وإذا صوت يجلجل في الفضاء خشناً مرعباً وهو يصيح :

خراب يا بيت خجاء خراب خراب يا بيت خجاء خراب
 كان ذلك صوت الشيخ على سريط ، وهو شيخ كان
 أول أمره طالباً ذكياً نابغاً بمسجد زغلول ، ثم تجرد لكتب
 التصوف وأكثر من قراءتها ، فاختلط عقله وأدركته جذبة ،
 فكان يقضى ليله ونهاره ماشياً في طرق المدينة وهو عارى
 الجسم ، إلا خرقة يلقها حول وسطه ، وكان للناس فيه
 اعتقاد راسخ ينقلون عنه كثيراً من الكرامات ، فلما سمع
 الجمع نداءه انطلق يردد ما يقول كما يقصف الرعد : خراب
 يا بيت خجاء خراب !

٣

كانت لورا تخطو إلى الثالثة والعشرين من سنّها ، يزيّنّها
 جمال فاتن وطلعة مشرقة ، وهى شقراء أميل إلى الطول منها
 إلى القصر ، معتدلة القد خفيفة الروح والحركات ، لها
 شعر ذهبى لماع كأنه إكليل من نضار توجّها به الجمال ،
 وعينان زرقاوان فيهما السحر وفيهما الفتنة ، وفيهما الوداعة
 وكرم الخلق وصفاء الضمير ، وكان لها جسم بض كأنه
 البلور المذاب ، يكاد لصفائه تنعكس عليه الأشباح
 والصور . ولدت لورا في مدينة « بليموث » من مقاطعة

ديفنشير بإنجلترا ، وما مر على ولادتها أربعة أعوام حتى مرضت أمها ولم ينجع في علاجها دواء ، فماتت ، وحزن عليها نيكلسون حزناً أوشك أن يقضى عليه ، وأقسم ألا يتزوج بعدها ، وأصابه شيء من الذهول كاد يكون خيلاً ، فأشار عليه أبو زوجته أن يرحل من إنجلترا ، فغادرها إلى مصر ، وأخذ يتجر في الصوف والحرير ، وترك لورا بإنجلترا عند جدتها لأُمها ، فرأت فيها جدتها صورة من بنتها فشغفت بها وبذلت أقصى جهودها في تهذيبها وتعليمها ، وسافر أبوها من مصر إلى إنجلترا في صيف ١٧٩٠ فوجد ابنته وقد نضجت ثمرتها ، وبدأت فيها صورة ناطقة من أمها ، ورأى أن بعده عنها في بلاد الغرب قد كدر عليه صفو حياته ، وجعله عرضة للسأم والحنين والهواجس ، فعاد بها إلى رشيد ، وأخذ يلقيها العربية ويعمل على اتصالها بينات الأسر العريقة بالمدينة .

وكانت تختلط بمحمود العسال لكثرة زيارته لأبيها للمسامرة والحديث في التجارة ، ولأنها كثيراً ما كانت تراه عند زياراتها الكثيرة لأمه أو لزبيدة بنت البواب ، وكان محمود على ما وصفنا من وسامة ورجولة وخلق عظيم ، فأحست نحوه أول الأمر بشيء من الإكبار ، كما يعجب الأطفال بأبطال القصص التي تروى لهم ، ثم زاد هذا

الإحساس قليلا فصار رغبة في مقابلته ومجالسته والحديث معه ، ثم نما فصار شغفاً بالتحدث عنه والإكثار من ذكره ، حتى كادت تسم خادمتها الحاجة مبروكة ، ثم انقلب هذا الإحساس ولوعاً وحباً بالغت في كتمانها ، واستعانت بكل ما تستطيع المرأة من رياء لكبتة ودفنه في صدرها ، فلم يره أحد ، ولم يشعر به أحد ، وبقي سرا غامضاً في سويداتها لا تبوح به إلا لأحلامها ، ولا تهمس به إلا لوسادتها ، حينما تتقلب على سريرها قلقة تتمنى الأمانى وتتوحش العقبات : لم تسمع أن مسيحية تزوجت بمسلم ، وهى لا يمكن أن تفرط في دينها من أجل حب ، وإن كان قاتلاً . ثم إذا جاز في الإسلام أن يتزوج المسلم بمسيحية ، فمن أين لها أن تعلم أن أباهما سيرضى عن هذا الزواج ويباركه ؟ وإذا رضى أبوها فهل يحبها محمود كما تحبه ؟ وهل يطنى على المأثور من العادات في سبيل ضمها بين ذراعيه ؟ إنه لم ينظر إليها نظرة مربية ، ولم تطف منه كلمة فيها أقل تورية أو تلميح ، وكل ما في أمره أنه يختلط بالأسرة اختلاط الصديق الوفى الطاهر القلب ، الذى يجرى على سجيته ولا يبدو في كلماته أو لمحاته أو أعماله إلا اللطف والحنان ، إنه لم يعرف الحب ، ولم تهتر له أوتار قلبه ، إنه ملك كريم ، والملائكة لا يعشقون .

شغفت لورا بمحمود وكتمت غرامها ، وأصبحت
تعلل نفسها برؤيته بين الحين والحين ، فطلبت إلى أبيها
أن يدعو لوليمة عيد ميلادها ، واجتهدت في أن تجعلها
حافلة بالألوان متقنة الطهو ، فقضت النهار كله مع مبروكة
ونخادمها عبد الدائم في إعدادها ، وأكثرت من أنواع الكعك ،
وتأنقت في عمل « البودنج » حتى إذا جاء وقت العصر
تفرغت لزينتها ولبست أجمل ما لديها من اللؤلؤ . أذن مؤذن
جامع « الإدفيني » للمغرب ، اتجه « نيكلسون » إلى داره
حزيناً مفكراً ، حتى إذا قابلته لورا أخفى ما في نفسه وغمرها
بالعناق والقبل ، وقال باسمياً :

— ماذا صنعت لنا سيدة الدار في هذه الليلة ؟ إلى
أشم روائح مشبهة لألوان مختلفة ، وأكاد من السرور والجوع
ألتهم السيدة الطاهية قبل أن ألتهم ما طهته من أصناف
الطعام .

— إن السيدة الطاهية تحكت اليوم في مال أبيها ،
وبدرت فيه تبديراً .

— إن الأب والمال لك يا فتاتي الحلوة ، فافعلي بهما
ما شئت .

— نحن هنا يا أبي في الشرق موطن الكرم وحسن الضيافة ،
وقد أردت أن أحاكي زبيدة فيما تصنع من ولائم ، فأكثرت

من الألوان وخاصة بعد أن دغونا محموداً العسال . أوعذك
بالحضور يا أبي ؟

— إنه أجاب مغتبطاً مسروراً . هذا الشاب أحبه كما
أحبك يا لورا ، لم أر فيه منقصة ولم أقع له على زلة ، ففيه
الشهامة والصراحة ، والصدق والغضب للحق ، ونصرة الضعيف .
إنه شهم يا لورا ، وطالما تمنيت لو يكون لي ولد مثله .
وهنا سمعت دقات على الباب ودخل محمود فحياهما ،
وهنا لورا فابتسمت له ابتسامة مشرقة ، وصاحت بخادمها
أن يعدا المائدة . وكان نيكلسون بادی السرور والمرح ،
كثير النوادر والنكات ، مسرفاً في الضحك ، أما محمود :
فقد استولى عليه وجوم عجز عن إخفائه ، وحاول كثيراً
أن يندمج في الحديث والضحك فظهر تكلفه ، وبان تصنعه .
فقال عليه نيكلسون قائلاً :

— ما بال بطلنا الليلة منقبض الأسارير على غير عادته ؟
— هذه الحوادث التي جرت اليوم أزعجتني .
هذا يا بني يحدث في كل يوم حتى اعتادته النفس ،
ولو حزنا لكل ما نراه لقضينا العمر غماً وأسفاً . لا يا بني ،
أظن أن شيئاً آخر يحزنك ، فإني ما رأيتك إلا باسمماً مستبشراً ،
وهذه ليلة لورا فكان عليك أن تكون فيها على أحسن ما تكون .
— الحق أن هناك مسألة تنغص على حياتي كلها ، ولست

بغريب منى يا نيكلسون ، ولا أعدّ لورا إلا أختاً لى لا يكتم
 دونها حديث . لقد برح بى حب بنت خالتى زبيدة ،
 وكثيراً ما كاشفتها بهذا الحب وهى تروغ منى وتلتمس
 المعاذير ، حتى إذا كدت أياأس منها ، وأياأس من نفسى .
 ذهبت إليها فى هذا الصباح لأظفر منها بوعده أو خيال من
 وعده ، فلم أنل منها إلا المماطلة والتسويف ، والإحالة
 إلى الأقدار .

سمعت لورا ذلك فأحست بقذيفة تنفجر فى قلبها فتذهب
 به بدداً ، فشخصت عيناها فى ذهول ، وأوشكت أن يغمى
 عليها ، لولا عزيمة جبارة انتشلتها من يد العواطف الثائرة .
 ثم نظرت إلى محمود فى شغف وألم وحسرة ، وقد طارت
 آمالها مع الرياح ، ودك ما بنته من الآمال والأحلام دكاً ،
 ورأت أن قلب حبيبها قد شغل عنها بسواها ، وأنه لم يبق
 به زاوية صغيرة يلجأ إليها غرامها العنيف القاتل ، وأن من
 عجائب القدر أن يشغف محمود زبيدة أحب صديقاتها
 إليها ، وأقربهن إلى هواها وعطفها وحنانها . إن حبها له
 يحملها على صرفه عن زبيدة والضمن به عن أية امرأة كيفما
 كانت ، ثم إن هذا الحب نفسه وما فيه من حنان ، يفرض
 عليها أن تبذل كل ما فى قدرتها لإسعاده وهناءته ، ولن
 يسعده إلا أن ينال يد زبيدة ، فهل يدفعها حبها إلى التضحية

بآمال حبا ؟ وهل يستطيع ذلك الحب أن يبلغ ذروة الشرف فيكم ناره في قلبه ، ويقضى على الغيرة الطبيعية التي تمزقه ، ويقنع بأن يرى حبيبته هائلاً سعيداً ؟ إن اجتذاب الحبيب بالإغراء وسيلة رخيصة لا تليق بحبا الطاهر ، والحب الذي لا ينال إلا بغمز العيون ومضغ الكلام ، قليلاً ما يدوم .

نظرت لورا إلى محمود وهذه العواطف الجامعة تعتاج في نفسها ، ولكن عزيمتها أبت أن يظهر منها أى أثر على وجهها ، وقالت :

— مسكين يا محمود ! ! لم أعرف أنك متعلق بزبيدة ، ولكنى أعرف أنها تهيم بذكرك ، وتكيل لك الثناء والمديح كيلاً .

— يظهر أن الثناء غير الحب ، ويظهر أن شيطاناً عنيداً يتحكم في رأس زبيدة ، ويحذرنا من التزوج بى .

— هذا عجيب ! إن مثلك يا محمود تتمناه وتشرف به أية فتاة رشيدة .

— الذى يهمنى أن أعرف هذا السر الذى يحول بينها وبينى .

— مسكين يا محمود ! ثم قالت وقلبا يكاد يتقطع حسرة وألماً : سأكون سفيرتك فى هذا الأمر يا محمود ، وسأبذل جهد الأخت الشقيقة حتى تفوز بأمنيتك . دع الأمر لى فإننا فى هذا المجال أمهر من الرجال وأشد تأثيراً .

— جزاك الله خيراً يا لورا ، وأرجو أن توفي حيث نخت
وتقطعت حبائلي وأشراكي .

وهنا أطل نيكلسون من النافذة ، فرأى في الشارع طوائف
من الناس يلغطون ، فظن أنهم يتحدثون في شأن عثمان
نحجا ، ولكنه سمع أحدهم يقول : « إنه جاء من الإسكندرية ،
ويقال إن السيد محمد كريم هو الذي أرسله » فظهر عليه
الاضطراب ، وبرقت عيناه واصفر وجهه ، وقال لمحمود :
يظهر أن الواقعة وقعت ، وأن شيئاً جليلاً حدث بالإسكندرية .
هلم يا محمود لنعرف جلية الخبر . في وديعة الله يا لورا ،
وسأعود بعد ساعة .

ارتبكت لورا وظهر عليها الخوف ، وألحت على أبيها
أن يكشف لها عن حقيقة الأمر ، ولكنه أسكتها بقبلتين ،
وأثار شكوكها بدمعتين سقطتا على خديها ، وانصرف
مع محمود مسرعين .

أخذ محمود يسأل المجتمعين عن سبب ضجيجهم ،
فقال له أحدهم : إن صديقاً أكد له أن الإفرنج نزلوا
الإسكندرية وامتلكوها ، وأن رسولا أرسله السيد محمد كريم
محافظ الإسكندرية إلى عثمان نحجا ليخبره بالأمر ، وأن
الناس يذهبون أفواجا إلى الديوان .

فأسرع محمود ونيكلسون إلى الديوان — وكان الزحام

حوله شديداً — فاخترقا الصفوف حتى دخلا ، فرأيا عثمان
 نجبا ومعه الأعيان والتجار — لأن العلماء أبوا أن يستجيبوا
 لدعوته — وقد جلسوا وهم صموت يبدو عليهم الذعر والحيرة ،
 ورأيا رسول السيد محمد كريم واقفاً أمامهم . فاتجه عثمان
 نجبا وقد جف ريقه وارتعدت أوصاله وقال للرسول :
 — نبئنا بخبر هذه الداهية مفصلا . فقال :

— وصلت بالأمس إلى مياه الإسكندرية عمارة فرنسية عند
 مطلع الفجر ، فلما ارتفع النهار رأها أهل الثغر وقد غطت
 سفنها مياه البحر ، ولكنها لم تقف بالميناء بل اتجهت إلى
 ناحية العجمي ، فأرسل السيد محمد كريم طوائف العربان
 إلى هذه الجهة ، فرأوا أنها أخذت تنزل الجنود بالزوارق
 عند المكس بعد منتصف الليل ، حتى إذا تجمع الجيش
 سار في ثلاث فرق نحو الإسكندرية . وحاول بعض عربان
 الهنادي مناوشة الجنود فلم يفلحوا إلا قليلا . وجمع السيد
 محمد كريم كل رجاله وحنوده فانهزموا لقلّة عددهم وسلاحهم ،
 وقدم مدافعهم وتهدم حصونهم . ودخل الإفرنج المدينة
 في صباح اليوم بعد أن قاومهم الأهالي فزقوهم بقذائفهم .
 أما رئيسهم : فيدعي : نابليون ، وهو شاب صغير السن
 نحيف الجسم ، ولكن جميع قواده يبجلونه ويخضعون له
 خضوع العبيد للسيد . وهو يدّعي أنه صديق الدولة العثمانية ،

وحبيب الإسلام والمسلمين ، وأنه لم يأت إلى مصر إلا لإنقاذ أهلها من ظلم المماليك . ويبلغ جيشه نحو الثلاثين ألفاً ، ومعهم من آلات الحرب ما لا عهد لنا به . وقد أظهر السيد كريم الخضوع لنابليون وشرع يساعده في الظاهر في جمع الخيل والجمال ، ودعوة العربان إلى مناصرته ، وأرسلني إليكم سرّاً لتأخذوا حذركم وأسلحتكم وتحصنوا المدينة ، وتجمعوا الجنود والأهلين للقاء هذا الطاغية ، فقد يسقط جيشه على رشيد في أى يوم . فقال عثمان خجاً :

— لا بد من المقاومة والاستماتة في الدفاع ، وربما استطعنا أن نلقن هؤلاء الإفرنج درساً لا ينسى .

فقال السيد محمد البواب ، وكان شيخاً في الخمسين فارع الطول متين بناء الجسم ، جريئاً شجاعاً : إن حصون المدينة ضعيفة وأسوارها مهدمة ، ومحال أن يستطاع تقويتها في زمن قصير .

فقال خجاً غاضباً : هذا دأبكم دائماً يا أبناء العرب ، لا تثبتون على الشدائد .

— نحن أثبت على الشدائد من الجبال ، ولكننا نحمل الآن أوزار ظلمكم وعيشكم بشئون البلد . أتظن يا أغا أن في المدينة رجلاً واحداً يرضى أن يشد أزرك في قتال ؟ لقد

زهدتهم في الحياة ، وأخذت في نفوسهم البطولة وحب الوطن .
 إنما يدافع عن وطنه من يشعر أنه ملهى صباه ومصدر
 مجده ، ومقر سعادته وموئل حرته ، وأن مافيه من أرض
 وماء وهواء ملك له ولسلالته من بعده ، أما من يعذب في
 وطنه ويحرم خيراته ، ويساق إلى العمل كما تساق البهائم
 لينعم غيره وهو جائع ، فلن يعرف معنى للوطن ، أو معنى
 للدفاع عن الوطن .

فبهت عثمان أغا والتفت إلى التجار ، وقال : أهذا رأيكم
 في رجال مدينتكم ؟ فأنبرى إليه الحاج أحمد شهاب وقال :
 - إن هذا ليس عاراً على أهل المدينة ، إنما العار على من
 يطلب من المذبوح أن يدفع عن نفسه . وهنا قام السيد
 محمد البواب وقام الأعيان منصرفين خلفه ، وتركوا عثمان
 خجلاً يتحرق غيظاً . ولو استطاع أن يقبض عليهم ويذيقهم
 صنوف النكال لفعل ، ولكن اضطراب المدينة واقتراب
 الأعداء لم يدع له سبيلاً لشفاء نفسه . ومال نيكلسون في
 الطريق على أذن محمود يقول في صوت خافت : سأرحل
 الليلة فقد أعددت كل شيء ثم أسرع إلى الدار وأحضرا
 من يحمل المتاع إلى السفينة ، وغير نيكلسون ملابسه وتزياً
 بزى المغاربة ، وحمل في منطقتة مسدسين وأكياساً بها من
 الذهب ما يزيد على ألف محبوب . ولبست لورا حبرتها

والدموع تتساقط من عينيها ، وسارت معها إلى السفينة .
 وهناك ودع نيكلسون صديقه وداع الأب الشفيق للولد البار ،
 وهمس في أذنه : إذا قدمت القاهرة فسل عن الحاج محمد
 السوسى بسوق المغاربة . وتقدمت لورا نحو محمود باكية
 الطرف دامية القلب وهى تقول : إلى اللقاء القريب يا محمود !
 ثم أقلمت السفينة وهبت الريح شمالية فدفعتها إلى الجنوب ،
 ووقف محمود حزيناً يقلب كفيه أسفاً ، وقد أحس أنه
 كان له جناحان فرماه الدهر فيهما . ثم نظر فرأى السفينة
 وقد التقمها اليم وطواها الظلام .

٤

في يوم الثلاثاء الثالث من شهر يولية سنة ١٧٩٨ كانت
 رشيد كالبحر المائج المضطرب ، عصفت رياحه وتواثبت
 أمواجه . فكنت تسمع جلبة في كل مكان ، وترى
 أفواجاً من الأهلين تساق بالسياط ، وحنوداً من الفرسان
 تعدو بنحيوها هنا وهناك ، والبنادق في أيديهم يهددون بها
 كل من لاذ بداره أو حاول الفرار . فقد أصدر عثمان نجبا
 أوامر قاسية بأن يقوم كل رشيدى بالمعاونة في تجديد الأسوار

وتقوية الأبواب والحصون ، وأن يعد كل رشيدى سلاحاً
 كيفما كان نوعه لقتال الغزاة الغاصبين ، ولم تستثن أوامره
 طفلاً ولا شيخاً همماً ولا مريضاً زميناً فكنت لا تسمع
 إلا رنات السياط على الظهور ، وقصف المدافع والبنادق
 ممتزجاً بصراخ الأطفال ، وواولة النساء .

وفي صبيحة يوم الجمعة السادس من شهر يولية ، رأى
 الناس من المآذن جيشاً يبلغ عدده نحو ألفى مقاتل يزحف
 على رشيد بعد أن غادر أذكو . وهنا أعد عثمان نجبا جنوده ،
 وكانوا لا يزيدون على مائة من الإنكشارية وبعض الباشبوزق ،
 وانضم إلى هؤلاء بعض الأهلين كارهين ، وقد سلحوا
 بالعصى والسكاكين ، وهجم الجنرال « دوجا » بجيشه
 وآلاته الحديثة على رشيد عند الظهيرة ، وما كان أشد
 دهشته حين رأى جيش الممالك يفر من غير أن يجرد سلاحاً ،
 وحين رأى الأهلين يرحبون بقدومه ويحيونه تحية الفارس
 المنقلد ، أما عثمان نجبا وسليم بك : فقد كانا في الفرار
 أسرع من جنودهما ، فركبا النيل إلى دمياط .

دخل « دوجا » رشيد دخول الفاتحين ، وبقى بها يومين
 أو ثلاثة حتى قدم الجنرال « جاك فرنسوا مينو » الذى عينه
 نابليون حاكماً لرشيد ، فهرع الأعيان وعظماء المدينة إلى
 استقباله ، وأظهروا البشر والسرور ، وتلقوه بالزمر والطبول ،

وأطلت النساء من النوافذ ومن فوق سطوح الدور ، يحينه بالأغاريد ، وسلمت إليه مفاتيح المدينة في حفل حافل ، وقف فيه مينو فألقى خطبة مسهبه لخصها ترجمانه « إلياس فخر » فقال :

إن جناب الجنرال لن يتدخل في الحكم الداخلي للمدينة ، ويطلب من الأعيان وكبار البلد أن يؤلفوا منهم ديواناً للنظر في شئون الناس . ثم إنه يؤكد أن كل ما يشتري للجيش يصرف ثمنه للتجار ذهباً ، ويعلم ميله وميل دولته الشديد للإسلام ، وأنه سيكون أول من يذهب إلى المساجد للصلاة ، وأن حكم الجمهورية الفرنسية مؤسس على الإخاء والمساواة ، وأنه جاء لينشر العدل ويبدد ظلام الجهل والظلم .

كان مينو في نحو الثامنة والأربعين من عمره ، ربة في الرجال ، غليظ الوجه ، ثقل الملامح ، أشقر الشعر ، دب الشيب إلى فوديه قليلاً . وكان سريع التأثر ، يفعل ما لا يقول ، ويقول ما لا يفعل . سريع الغضب والرضا ، معتدًا بنفسه ، كثير الزهو بذكائه ، يعتقد أن حكمة الدنيا وفلسفتها أنزلت عليه وحياً ، وأن محجبات الغيب دانت لعبقريته طوعاً . وقد أدى به ذلك الاعتقاد إلى الصلف واحتقار آراء غيره ، ودعاه إلى العجلة وسرعة البت في الأمور الخطيرة بلا أناة أو تفكير أو مشاورة . فجر عليه ذلك

بغض زملائه ومرءوسيه ، وسخطهم عليه والسخرية منه .
وكان من أسرة نبيلة بفرنسا ، وربما زاد هذا النسب في
كبريائه على أنداده من رجال الحملة ، وربما أبطره عطف
نابليون عليه عطفاً حار في تعليقه المؤرخون .

اجتمع العلماء والتجار وأعيان المدينة بمقر السيد محمد
البواب ، لينظروا في هذا الحادث الجلل ، بعد أن صرح
مينو بسياسته ، فقال الحاج أحمد شهاب : يظهر أن الله
أراد الخير لهذا البلد المسكين ، فأرسل هؤلاء الفرنسيين لإنقاذه .
فقال الشيخ الحضري : أفنى بعض العلماء تيمورلنك
بأن الحاكم الكافر إذا كان عادلاً ، خير من الحاكم
المسلم إذا كان ظالماً . وهنا زفر الشيخ صديق ، وقال :
صدق الله العظيم « يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا بطانة من دونكم
لا يالونكم خيالاً ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من
أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات
إن كنتم تعقلون » .

فاتجه إليه الشيخ الحضري وقال : يا مولانا لقد سمعناه
اليوم يقول : إنه سيرك الحكم لأهل البلد ، وإنه يحب
الإسلام ، وإنه سيؤدى الصلوات .

فوقف محمود العسال وقال : إني لشديد العجب من أن
أراكم ، وقد ضاع الوطن العزيز واستبيح حماه ، تسرون وتفرحون

ويهنئ بعضكم بعضاً بهذا الفتح المبين والنصر المؤزر . إننا
 نبغض الممالك ونضج من ظلمهم وطغيانهم ، فهل معنى
 هذا أن نترك الدفاع عن البلد لنستريح منهم بدخول عدو
 جديد ؟ عار أيها الناس وأى عار أن يقال : إن رشيد لم
 تدفع عن حوزتها دفاع الأسود ، وإنما قابلت فاتحها
 بالطبل والزمور ! كان علينا ألا نقبع في دورنا حتى يصلوا
 إلينا ، فقد قال ابن أبي طالب : ما غزى قوم في عقر
 دارهم إلا ذلوا . بل كان يجب أن نقابلهم في الرمال المحرقة
 فنيدهم في الصحراء بين رشيد والإسكندرية ، ولكن
 لن يصلح قوم لا قائد لهم ! والأثم إباء وكبرياء ،
 فإذا مات الإباء وذلت الكبرياء بادت الأمم . قال هذا
 وخرج مسرعاً وقد عصف به الحزن والغضب ، وترك القوم
 واجمين ذاهلين ، وإذا صوت الشيخ على سريط يملأ جوانب
 الفضاء وهو يصيح : إذا ذهب الدثب وجاء الأسد ،
 فيا ضيعة المال والولد ! !

وبعد أيام أنشأ مينو ديواناً للأحكام عين به بعض العلماء
 والأعيان ، والفرنسيين والمترجمين . وأظهر في أول عهده
 العدل والتسامح ، وبالع في الاختلاط بالأهلين ، فكان
 بيته في كل ليلة مثابة للعظماء والعلماء . وكان يتحدث
 في هذه السهرات عن عظمة فرنسا وقوتها ، وأنها اجتاحت

المالك وقهرت الأمم . وكثيراً ما كان يمازح الشيخ البرير ويبادلہ النكات . وكان من بين المترجمين على مودته والتقرب إليه السيد على الحمamy أخو زبيدة من أمها ، فإنه بعد أن عين عضواً في الديوان أخذ يملأ الدنيا ثناء على الفرنسيين ، ويضع « الجوكار » وهو شعار الجمهورية على صدره فخوراً تياهاً ، حتى سماه بعض خبثاء المدينة « الأوفيسال على » . أما محمود العسال : فكان يرأس جماعة الساخطين من شبان المدينة ، وكان يجهر برأيه في حكم الفرنسيين غير هياب حتى لقد شكاه الضابط « لوى أوجست » نائب الحاكم العام إلى مينو رات ، فكان يشفع له على الحمamy ، والسيد محمد البواب .

مروكانت زبيدة في هذا الحين مريضة طريح فراشها ، فلما مند رفضت مكرهة خطبة محمود ضاقت نفسها عن احتمال ما هي فيه من حب ورياء ، وأمل كاذب ، فتوالت عليها الأوهام وتزاحمت الآلام . ومضت الأيام والأسابيع ، وهي لا تزيد إلا سقماً ، ولا تجد إلى الشفاء من سبيل ، وكانت تنتعش قليلاً لزيارة محمود ويعود إلى وجهها شيء من نضارة الحياة ، حتى إن أمها كانت ترجوه أن يزورها في كل يوم ، وما كان في حاجة إلى رجاء . ولم تبق أمها دواء ولا بخوراً ولا حجاباً ولا تيممة ، إلا بذلت فيه المال الكثير

طامعة راضية ، ولكن المرض كان يطغى بزييدة ويعصف
بشبابها . زارها يوما محمود وقد كاد يبلغ بها الوصب
غايته ، فأطفأ بريق العيون ومحا نضارة الحدود ، ولم يبق
منها إلا هيكلًا من جمال قديم ، فنظرت إليه في شغف
ويأس ، وقالت :

— مسكين يا محمود ! إن الزهرة التي سقيتها بدمعك ،
وأدفأتها بزفراتك ، وغرستها في سويداء قلبك ، وكنت
تغار من النسيم أن يمسيها ، ومن الطل أن يلثمها ، ومن الشمس
الضاحكة أن تداعب أوراقها ، وكنت تباهي بها الأزهار
وتتحدى البساتين — قد هبت عليها عاصفة هوجاء فتركتها
هشما ، واصطلحت عليها الأنواء فغادرتها حطاماً . انظر
إلى يا محمود فهل تراني كما كنت أكون ، أو كما كنت
تحب أن أكون ، الشباب والصحة جمال الجمال ، والشباب
والصحة جمال الروح ، والشباب والصحة جمال الحياة .
إني أحس وأنا راقدة في فراشي أن هذا السرير يعدوني
إلى الموت عدواً ، وأود أن أملاً عيني من كل شيء في الحياة ،
قبل أن أفارق الحياة ! !

كان محمود حزيناً مطرقاً ، يغالب دموع عينيه ويكبت
زفرات صدره ، فالتفت إليها وقد تكلف الابتسام قائلاً :
— أنت تفارقين الحياة ؟ هذا مستحيل ! إن الله أرحم

بعباده من أن يفجعهم بهذه الفجیعة . إن روحك يا زبيدة متصل بكل روح ، وقلبك يرسل الحياة والأمل إلى كل قلب ، فهل تظنين أن الله يطغى روحاً بها حياة الأرواح وأمل القلوب ؟ إن زهرتي إن ذبلت اليوم فإن في جمالها الكامن ما يتحدى العواصف والأنواء ، وسراها غداً ، وهى تتخايل فوق غصنها ناضرة فتانة .

وهنا ألفت بيدها النحيلة بين يديه وقالت : أين لورا ؟
إنها لم تعدنى !

— لقد سافرت مع أبيها منذ دخول الفرنسيين ، ولا أعلم أين استقرت بهما النوى .

— إنها أجمل فتاة رأيته خلقاً وخلقاً، ولو أنها كانت مسلمة لكانت خير زوجة ، إنها الحنان والعقل لفا في أبدع صورة من صور الجمال ، فهل نراها مرة أخرى ؟ !

— إن سفن الحياة تفرق وتلتقى في بحر العمر المائج ، والحب كفيل بالألا يطيل الفرقة بين الشيتين .

وهنا دخلت أمها فرأتها باشة مستبشرة ، فقالت له : أنت شفاء ابنتى يا محمود ، وكأن فيك سحراً يبعث في جسمها العافية . فالتفت إليها محمود قائلاً : تعالى يا خالى نتحدث في الأمر حديث جد وصراحة . هذه الأحجية وهذا البخور لا تفيد شيئاً ، إن زبيدة لا تشكو إلا وعكة تزول إن شاء

الله ، إذا اتخذت الوسائل الصحيحة لعلاجها ، أتمانعين
في أن يراها الطبيب « شوفور » الفرنسي ؟

— أيجوز يا بني أن يرى الطبيب الإفرنجهى بنى ، وأن
يكشف عن جسمها كما يفعل بالرجال ؟

— كان يقول لنا شيخنا الحضرى : « إن الضرورات
تبيح المحظورات » وسلامة زبيدة من أشد ضرورات الدنيا .

أنا ذاهب لأدعوه . ثم انطلق كما ينطلق السهم وعاد بعد
ساعة ومعه الطبيب « شوفور » وهو رجل قضى برشيد أكثر
من عشر سنوات ، وعرف أهلها واختلط بأسرها . فلما

فحص زبيدة اتجه إلى محمود وقال : إن حال زبيدة
لا يقتضى الانزعاج بتاتاً . إن كل أجهزتها سليمة طبيعية ،

ويغلب على ظنى أنها مصابة بمرض الأعصاب ، وهى تحتاج
إلى الهدوء وإلى كل ما يبعث السرور فى النفس ؛

وسأرسل لها دواء أرجو أن يكون شافياً . ثم ضحك وقال :
لا تخافوا شيئاً إنها بخير . وبعد أن أطرق إطراق المفكر

قال : أظن أن تغيير الجو الذى هى فيه ، والسفر إلى مدينة
أخرى سيكون لها أشنى من ألف دواء . فقالت أمها :

— إن خالتها زوج السيد أحمد المحروق بالقاهرة قد أرسلت

منذ يومين رسالة تتشوق فيها إليها وتلح فى طلبها .

— هذا خير ما يكون . وبالقاهرة من أشهر أطباء الحملة

الطبيب « ديجنت » ، فلو توصلتم إلى أن يراها لشفائها في أقرب وقت .

ثم انصرف الطبيب بعد أن ترك وراءه في الدار روحاً من الأمل والابتهاج ، ورأت نفيسة ووافقها محمود وجوب سفر زبيدة إلى القاهرة ، وأقنعت الأم السيد محمداً البواب بذلك فاقتنع . وكانت سفينة عظيمة محملة بالأرز على وشك السفر ، فأعدت بها غرفتان ، وسافرت بها زبيدة وأخوها على الحماى . وبعد سفرها أحس محمود بالوحشة والقلق ، وضايقه جواسيس الفرنسيين ، فوطد العزم على الرحيل إلى القاهرة ، فسافر إليها بعد عشرة أيام .

٥

حينما جاوزت السفينة بنيكلسون وابنته لورا معالم رشيد ، أحست لورا بكثير من الحزن على فراق وطنها الثانى ، وموطن حبيبها الأول ، وذكرت أيام سرورها ومجالس البهجة والأنس بين صديقاتها ، وتفتت قلبها حسرة على فراق محمود ، لأنها رأت في لحظة أن صروح آمالها قد تهدمت مرتين : مرة بانصراف هواه إلى زبيدة ، ومرة بتلك الضربة القاسية التى قضت بتفريقهما وحرمانها أن تتمتع بمشاهدة وجهه الوضاح ،

وسماع حديثه الساحر . وجلس نيكلسون مهموماً مفكراً
كثير القلق ، وأخذ يستحث النوقى على الإسراع ونشر
جميع القلوع ، ويمنيه الأمانى إذا سابق الرياح ولم يعوق ،
لأنه كان يريد أن يصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة
إليها . وصلت السفينة إلى شاطئ بولاق بعد سبعة أيام ،
فتزل نيكلسون ولورا واستأجرا حميراً لحملهما وحمل أمتعهما
إلى خان بالقرب من مشهد سيدنا الحسين ، حتى إذا استقرا
فيه يومين ، كان نيكلسون قد اهتدى إلى دكان صغير
بسوق المغاربة وضع فيه قليلاً من البضائع ، واستأجر داراً
صغيرة بالكحكيين فانتقلا إليها . وحينما وضع نيكلسون قدمه
بالقاهرة رآها فى هرج ، واضطراب وذعر ، فقد وصل
إليها الرسل الذين بعث بهم السيد محمد كريم إلى مراد بك ،
وعقد اجتماع بقصر إبراهيم بك حضره مراد بك وأبو بكر باشا
والى العثمانيين ، وقواد المماليك ، وكبار العلماء، وفى هذا
المجلس أظهر المماليك الفرور والاعتداد بالقوة ، فقرروا
سجن قنصل فرنسا وجميع التجار الفرنسيين بقلعة الجبل ،
وأن يستعد مراد بك للسفر لمقاومة الفرنسيين ودحرهم قبل
أن يصلوا إلى القاهرة . وفى اليوم التاسع من شهر يولية زحف
مراد بك من البحيزة، وكان بالجيش كثير من المدافع والبارود ،
وقد بلغ عدد جنوده من فرسان المماليك ومشاة الإنكشارية

ما يزيد على ثمانية آلاف ، وصحبه في النيل نحو خمس وعشرين سفينة مسلحة ، يقودها على باشا الطرابلسي ، ونحو خمس وثلاثين من السفن التي تحمل الجنود والذخائر والمثونة . وبقى إبراهيم بك الكبير معسكراً في بولاق في ألفين أو أكثر من المماليك ، ينضم إليهم بعض الجنود المرتزقة والعربان والأهلين المتحمسين . ووصلت الأخبار بعد أيام بهزيمة مراد بك في موقعة شبراخت ، واحتراق ذخائره بقذيفة ألقتها العمارة الفرنسية على إحدى سفنه ، وعلم أهل القاهرة أن طلائع التمرد بدت في جنود نابليون ، لطول الشقة وقلة الغذاء ، وشدة الحر وقحول الأرض ، حتى وصلوا بعد جهد إلى قرية أم دينار في اليوم التاسع عشر من يولية ، ورأوا الأهرام شامخة متحدية . وفي اليوم التالي رأوا جيش المماليك على ضفة النيل اليسرى . وقد امتدت صفوفهم بين إمبابة وسفح الأهرام ، وكانوا في نحو أربعين ألفاً ، وكان الفرنسيون في نحو ثلاثين ألفاً . وهنا وقف نابليون يستحث جنوده ، ويشير إلى قمم الأهرام وهو يقول قوله المشهورة : « إن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم » .

ولكن الأهرام التي سمعته أرسلت إليه نظرة ساخرة من مؤخر عينيها ، ثم ابتسمت في ازدراء وأنفة ، لهذا المخلوق

الذى توهم أنه يستطيع أن يخرق الأرض ، وأن يبلغ الجبال طولاً .

خرج نيكلسون صباح اليوم الحادى والعشرين إلى مقبضكز إبراهيم بك بيولاى مع طائفة من المغاربة ، فرأى الطريق وقد ازدحمت بالذاهبين إليها لأن جميع المتاجر والجوانيت بالقاهرة أغلقت فى هذا اليوم ، ولم يبق بها إلا النساء والأطفال والشيوخ . وبدأت المعركة بين الفرنسيين وجيش مراد بك عند الظهر ، وفتك الفرنسيون بالماليك ، وتم لهم الغلب عند الغروب ، وفر مراد بك إلى الجنوب ، وتقدم نابليون ببعض قواده حتى وصل إلى قصر مراد بك بالجيزة ، وكان قصراً فخماً رفيع البنيان ، ثمين الأثاث والرياش به كثير من مخازن الزاد والدخيرة . ولما وقعت الواقعة رجع نيكلسون مع الراجعين والهموم والأحزان تخيم على الجموع ، والدعر يعصف بالقوم عصفاً .

ذهب نيكلسون إلى داره فطرق الباب ، فأسرعت لورا ففتحته وهى ترتعد من الخوف ، وقد طار الدم من وجهها . فلما رأت أباهما رمت بنفسها بين ذراعيه ، ولم تستطع أن تحبس عاصفة من البكاء كانت قد كبحتها طول يومها فضمها أبوها إلى صدره فى رفق وحنان وتركها تبكى لتروح عن نفسها وتخفف من أعباء أحزانها ، ثم أخذت تضحك

كالمحموم ، وتملاً وجه أيها قبلا ، حتى إذا هدأت النوبة
التفتت إلى أيها كالمترسة وقالت :

— أنت بخير يا أبي ؟

— بكل خير أيتها الفتاة المحبوبة المعريدة ، الباكية
الضاحكة .

— إن أفواجاً من الناس مروا منذ لحظة من الحارة وهم
يلطمون وجوههم ويصيحون : يا لطيف . . يا لطيف . . !
— ومن أحوج منهم إلى الاستغاثة بالله يا فتاتي ، بعد أن
قضى الأمر وامتلك الفرنسيون مصر ؟ !

— انهزم المماليك ؟ !

— شر هزيمة ! فقد هجم مراد بك بنحو خمسة آلاف
من فرسانه على فرقة « دوجا » فصدته مدافعها ، ثم هجم
على فرقة « ديزيه » وكان هجومه شديداً ، فحصد ديزيه
المماليك حصداً ، فانقلبوا إلى فرقة « زينية » فقابلتهم بنار
حامية ، وهنا ثبت المماليك وزلزل الفرنسيون زلزالاً شديداً ،
وكانت المدافع تقصف كالرعد ، ودخانها يسد الأفق ،
ولكن الفرنسيين صبروا وصابروا حتى حصروا المماليك بين
فرقتي « ديزيه » و « زينية » فأخذهم الموت من كل جانب ،
وقذف كثير منهم بأنفسهم في النيل واستطاعت شرذمة
قليلة أن تفر مع مراد بك إلى الجنوب ، بعد أن أحرقوا

سفنهم ، فسقط في يد الجيش كله ، واستولى الفرنسيون على مدافعه وأسلحته ومثوثته ، وكانت النكبة ماحقة .
 أما إبراهيم بك ومماليكه بالشاطئ الشرقى : فقد فروا بأموالهم وذخائرهم إلى بلبس ثم إلى الشام ، عندما تبينت لهم الهزيمة .
 ولا أدري لم فرق المماليك جيوشهم على الشاطئين ؟ ولم تهاونوا فلم يدهموا نابليون في طريقه بين الإسكندرية ودمهور ،
 حينما كان الجوع والظما والقيظ قد فكك عزائم الجنود وأوهن قواهم ؟ !

— يا للخيبة ؟ لقد كان مراد يظن أن ضربة من سوطه تكفى لسوقهم إلى بلادهم !

— إن المماليك متنافروا القلوب مفككو العزائم ، وقد استناموا إلى الراحة منذ عهد بعيد وأهملوا الاستعداد لكل مفاجأة . ثم إنهم اعتادوا الحرب على نمط قديم ، فلم يستطيعوا الوقوف أمام فنون أوربا وآلاتها الحديثة .

— وأين نابليون الآن ؟

— ناثم يا حبيبى ملء جفنيه ، على سرير مراد بك بعد أن ملأ بطنه من شهى طعامه وشرابه . وسيدخل القاهرة غداً فاتحاً منصوراً .

— مساكين هؤلاء المصريون ! لقد أصبحوا نهباً لكل

ناهب . ولم جاء نابليون إلى مصر يا أبى ؟

— جاء ليسد على إنجلترا طريق الهند أو ليفتح الهند
كما يزعم . ثم ابتسم ابتسامة حزينة : وقال عجيب شأن
هذا الرجل المغامر ! كيف يترك أوروبا الآن ومراجلتها تغلى
بالثورات والفتن والحروب ، ليطوح بجيشه في بلاد بعيدة ،
بينها وبين فرنسا بحر يتحكم فيه الإنجليز بأساطيلهم ؟
والأدهى والأمر أنه ضمن الخلود في مصر قبل الوصول إليها ،
فأحضر معه طوائف من العلماء والفنانين في أكثر شعب
العلوم والفنون .

— وهل تغضى عنه إنجلترا ، يا أبى ، وتترك له الحبل
على الغارب ، يتحكم في بلاد الله كما أراد ؟
— سئى أيتها السياسية الخطيرة . ثم قرص خدها في حنان
وقال :

— ولو كنت في كرسى « وليم بت » ، فإذا كنت تصنعين ؟
— لا تسخر منى يا أبت ، فلو كنت في كرسى وليم
بت لدرست الموضوع من جميع أطرافه ، وقررت ما يهدينى
إليه رأى ، بعد استشارة رجال الجيش والأسطول .
— وإذا هداك رأيك بعد كل ذلك إلى ترك نابليون ،
أتركينه ؟

— أتركه ولا أدع عينى تفارقه حتى يحين حينه ، وحتى
يفتل لنفسه حبلا ليشنق به رقبتة .

— حقاً إنك إنجليزية إلى أطراف بنانك ؛ إن إنجلترا
 لن تغضى طويلاً عن رجل يريد أن يعث بسيطرتها على البحار .
 — والمصريون ! أينامون على الضيم ؟

— إن المصريين سيكونون أشد ولاء على الفاتح من الإنجليز ،
 لأن دخول الفرنسيين في نظيرهم ليس مشكلاً وطنياً فحسب ،
 وإنما هو مشكل ديني قبل كل شيء . وقد ظن نابليون
 أنه يستطيع أن يضحك من ذقونهم بالمنشورات التي يعلن
 فيها أنه يحب الإسلام ويبغض المسيحية ، ويدين بالاحترام
 والطاعة للدولة العثمانية . رأيت اليوم طالباً من الأزهر يقرأ
 منشوراً من هذه بين جمع حافل من إخوانه ، فلما انتهى
 من قراءته قال ساخراً : ما شاء الله ! إن الشيخ الشرقاوي
 سيجد له منافساً في مشيخة الأزهر . وقال ثان : ما أحقرها
 حيلة ! إنه يبيع دينه ليلتهم مصر ، ثم يظن أننا نصدق .
 وقال ثالث : هنيئاً للمسيحية حين نقصت واحداً ، ويا ويلنا
 للإسلام بزيادة هذا الواحد !

هذه يا حبيبتى نفسية هذه الأمة الهادئة الودعة . إن
 فيها ذكاء مكبوتاً ، وفيها بطولة مدفونة ، وهي كالنار
 تحت الرماد تضطرم وتستشري إذا مستها جائحة في دين
 أو عرض أو وطن ، فاصبري قليلاً فترى كثيراً .
 — كيف حال محمود العسال يا ترى في وسط هذه العواصف ؟

— إني لشديد الخوف عليه ، فإنه عظيم الأتفة قوى
الشكيمة ، مخاطر في حب وطنه .

— لا تخف عليه يا أبى ، فإنه إلى ذلك حازم حذر ،
لا يضع قدمه إلا حيث ترى عيناه . آه ! لقد كانت أيام
رشيد هائلة سعيدة ، ولقد لقينا فيها أهلاً بأهل ، وأوطاناً
بأوطان .

— إن نظام الكون مؤسس على الإعادة والتكرار ، فالشمس
تعود ، والقمر يعود ، وفصول السنة تعود ، فهل من البعيد
أن نعود كما كنا إلى رشيد ؟

— وماذا ستعمل الآن يا أبى حيال هذه الكارثة المصرية
الإنجليزية ؟

— سأخدم وطنى ، وسأخدم مصر بكل ما فى مكنتى
من فكر وقوة وحيلة ، وسأنتظر ما تجيء به الأيام .

دخل نابليون القاهرة واستقبله علماءؤها وأعيانها بما يستقبل
المغلوب الضعيف غالبه القوى الظافر ، ونزل بيت محمد
الألبنى الكبير ، وكان قد تم بناؤه وتأثيثه قبل الحملة بأيام ،
وأظهر البشر والمجاملة والعطف على المصريين ، ورأى أن
يجتذب إليه العلماء وكبار البلد ، فألف منهم ديواناً للأحكام ،
وأغدق عليهم ، مدعياً أنه يدع للأمة حكم نفسها بنفسها ،
ثم عين من قواده حكاماً لأقاليم الوجه البحرى : وترك « دوجا »

يتعقب مراد بك بالصعيد . وكان نيكلسون يختلف في كل يوم إلى قهوة مجاورة للأزهر ، ليلتقط الأحاديث ، ويتعرف نفوس الشعب ، فكان لا يسمع إلا سخطاً على الفرنسيين ، وسخرية من وعودهم ، وحنقاً على العلماء وعلى كل من يمد يداً لمعونتهم ، وفي ذات يوم دخل القهوة حشد من طلاب الأزهر ، يتقدمهم الشيخ إسماعيل البراوى ، وهو عالم أزهرى ضخيم الجثة ، عرف بالجرأة والسلطة وبغض الفرنسيين ، فما جلس الشيخ حتى صاح : أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، أسمعتم الأخبار اليوم ؟ إنها كارثة الكوارث ، وقاصمة الظهر لهؤلاء الفرنسيين ! لقد سمع بعض الناس اليوم من أحمد الزرو التاجر بوكالة الصابون ، أن عمارة إنجليزية حطمت أسطول الفرنسيين بأبى قير فى الثامن عشر من شهر صفر وقتلت قائده وكثيراً من بحارته ، حتى لم يبق منه إلا أربع سفن صغيرة ، فشمل الفرح كل مكان ، وهبت رياح الثورة فى كل إقليم ، والآن ماذا بقى لهؤلاء الفرنسيين إلا أن نصيدهم كما تصاد الفيران ؟

فقال أحد الحاضرين : إننى سمعت أن رئيسهم ذهب مع جيشه لمحاربة إبراهيم بك فى الصالحية .
فقال الشيخ البراوى : لا بد أن يسرع إلى القاهرة ،

وإذا كان بالقاهرة رجال حقاً يحبون دينهم ووطنهم ، فإنه لن يبق بها يوماً أو بعض يوم .

فنهلت وجوه الحاضرين ، وصاحوا : نحن معك يا شيخ إسماعيل ، ولا بد من استئصال شأفة هؤلاء الغزاة .

— وهنا أسرع نيكلسون ليبلغ لورا الخبر السار . وبعد أيام قدم نابليون من الغزو ، فبهت حين ألقى إليه خبر دمار الأسطول ، ثم عاد إلى جلدته واستخفافه بالشدائد ، وأراد أن يهون الكارثة على الجنود ، فخطب في قواده خطبة حماسية جاء فيها : « إذا قضى علينا أن نبقي هاهنا بمصر وأن نعمل المعجزات ، فلنبق حيث نحن صلاباً غلايين ، وإذا قضى علينا أن ننشئ مملكة في الشرق ، فلنششها أشداء فاتحين ، وإذا فصلت البحار بيننا وبين بلادنا ، فإنه ليس ثمة بحار بيننا وبين إفريقية وآسيا . ولا نزال في عدد وعدة ، وفي استطاعتنا أن نتخذ من أبناء هذه البلاد جنوداً أقوياء ، وفي استطاعة "شامبي" و"كونتية" أن يمدانا بما شئنا من ذخائر وعدة ، فلنكن عظماء ، ولنعمل العظام ، ولنرفع رموسنا ، ولنهزأ بالزعازع ، فقد يكون القدر قد كتب لنا أن نغير صحيفة الشرق ، وأن نضم أسمائنا إلى أسماء عظماء الرجال الذين نخلد التاريخ ذكراهم . ثم أراد أن يظهر أمام المصريين بمظهر القوى الذي لا تنال منه الخطوب ، فاحتفل

بفتح الخليج احتفالاً باهراً ، ثم بالمولد النبوي ، ثم بعيد الجمهورية الفرنسية .

٦

وصلت السفينة إلى شاطئ بولاق مقلة زبيدة وأنحأها علياً الحمami ، ولم تمض ساعة حتى بلغا بيت السيد أحمد المحروقي ، بالقرب من الفحمين . وكان المحروقي في ذلك الحين رئيس التجار . وكان عظيم الثروة والجاه ، سخي الكف نهائياً بالأعباء ، ذكي الفؤاد واسع الحيلة . ولما دخل الفرنسيون القاهرة فر مع إبراهيم بك ، ولكنه عاد إليها واستطاع بدهائه وماله أن يجتذب إليه قلوب الفاتحين ، وأن يستعبد لهم بإحسانه وإغداقه .

مدت أمينة خالة زبيدة إليها ذراعها في شوق وشغف ، فطوقتها بهما وهي تقول : أهلاً بزهرة رشيد الناضرة ، التي لم تتحل بمثلها بساتين القاهرة ، إن نسيم البحر الأبيض إذا تزوج بنسيم النيل الهفاف ، ولدا ذلك الجمال البارع الذي يتحدى ريشة كل رسام . فضحك السيد أحمد المحروقي وقال عابثاً :

— إنها يا زبيدة امرأة لعوب فاحذريها ، إنها تتخذ منك

وسيلة لإطراء نفسها ، والمباهاة بحسنها . ألم ترى أنها بحركة
لولبية سريعة حصرت الجمال كله في رشيد ؟ فابتسمت
أمينة ابتسامة خفيفة ونظرت في المرأة بحركة لا تحس ، وقالت :
— هذا دأبك دائماً ، تسيء التأويل ، وتوجه الكلام

إلى غير وجهه . وهل لامرأة عجوز مثلى في السابعة والثلاثين —
ثم لمحت المرأة ثانية — أن تتحدث عن جمالها ؟ ولكنى أعتقد
أن رشيد وهى ميناء أقطار الشرق والغرب ، توافد عليها
التزلاء من كل صوب ، وامترجوا بأهلها وأصهروا فيهم ،
فأخرجوا نسلاً قوياً جميلاً . إن السلالات البشرية تضعف
وتتضاءل إذا لم تختلط بها العناصر والأجناس !

— دعينا من هذه الفلسفة أيتها العجوز الفاتنة ، وحدثينا
يا زبيدة عن رشيد وأحوالها . فقاطعت زوجها متعجلة واتجهت
إلى زبيدة .

— لقد هدت رسالة أمك قواى حين قالت : إنك مريضة ،
ولكنى لا أرى للمرض عليك أثراً ، فما حقيقة الأمر ؟
— لقد كنت مريضة أشد المرض ، ولكن الطبيب
« شوفور » وصف لى علاجاً وأشار على بالرحلة إلى القاهرة ،
فما كدت أقضى بالسفينة أياماً حتى أحسست ديب العافية .
— حماك الله من كل مكروه يا حبيبى . وكيف حال
أمك وأبيك ؟

— أما أمى فبخير ، وأما أبى فإنه كثير الوجوم والحزن منذ دخول الفرنسيين .

وهنا قال المحروقى : أظنهم لا يظفرون بحب أهل رشيد .
— لا أدري . لقد كنت مريضة منذ دخولهم ، وأظن أنهم لا يبلغون فى الظلم مبلغ الممالك . وهنا دخل ابن خالتها محمد المحروقى ، وكان فى وسبى فى التاسعة عشرة من عمره ، فحيا زبيدة وجلس وهو يلتقى إليها نظرات طويلة ، فيها ذهول وإعجاب ، وفيها نهم الشباب . والتفت أمينة إلى الفتى والفتاة ، ثم همست فى أذن زوجها فهز رأسه وقال :
— نعم الفكرة ! نرجو الله أن يهين لنا الخير . ثم التفت إلى ابنه وقال : هلم يا بنى ، فقد آن لنا أن نراجع دفاتر حساب اليوم .

وانفردت أمينة بينت أختها كالمشغوفة الواهة ، لأنها أثارت فى نفسها ذكريات عزيزة عندها ، أثيرة لديها . فقد شاهدت فى زبيدة صورة شبابها الغض ، الذى كان فتنة العيون ، وشرك القلوب .

ثم قالت : علمت من أمك أن محموداً العسال يلح فى زواجك وأنتك تأين . إن محموداً شاب تطمح إليه عيون الفتيات ، ولكن للقلوب أسراراً لا تدرك ، ولهاها سرائر لا تعلم . ولعل لك آمالاً تسمو بك عن رشيد وأهلها ، ولعلك

تودين أن تكوني بالقاهرة كخالتيك ، جليسة نساء الأمراء والكبراء وأرباب الدولة . إنني أرحب بك يا زبيدة في هذه الدار سيدة مسيطرة ، وأقضى أمانى أن أراك زوجاً لابنى محمد ، وهو شاب كريم الخلق ، رفيع المنزلة ، يمهّد له أبوه السبيل من بعده ، ويمدّ له أسباب الشهرة مدّاً . ألا تحبين يا زبيدة أن أكون أمّاً لك ثانية ؟ ! إن شمسك في رشيد لا يتسع لها الأفق ، أما هنا فستنفذ أشعتها بعيدة وضياء ، وسيتحدث كل بيت من بيوت الأمراء والأعيان ، عن زبيدة وجمال زبيدة .

أطرقت زبيدة وطال إطراقها ، وجمال بخاطرها سريعاً أن العرض مقبول ، وأن زواجها بابن المحروقي سيكون من ورائه الثروة والشهرة ، والجاه العظيم ما في ذلك شك . ولكن أين هو من محمود العسال كيفاً أطنبوا في وسامته وكريم خلقه ؟ ! لا شيء ! إن في محمود تلك الرجولة الحسنة التي تشبهها كل فتاة ، لتكمل بها ما في أنوثتها الناعمة من نقص . لا . . . شتان ما بين الرجلين ! ثم ما لها ولحمود وغير محمود . إن للعرفة نبوءة يجب أن تتحقق ، وهي واقعة لا محالة إذا أطالت لها عنان الصبر . فرفعت رأسها إلى خالتها وقالت : يجب يا خالتي أن ننسى الحديث في الزواج الآن ، حتى تزول تلك الغمة التي أطبقت على مصر ، وحتى نرى آخر

سفينة وهي تحمل الفرنسيين إلى بلادهم . إن زواجى بابن خالتى شرف لا يناله مثلى ، ولكن الزواج الآن أشبه بالضحك فى المآتم . والرقص فى بيت يحترق . فنظرت إليها أمينة نظرة الخبيرة الطبة بالنساء وخداعهن ، ثم تنهدت وقالت : كثيراً ما يرغب الإنسان عن الثمرة الدانية ويأبى إلا أن يتسلق لغيرها ! ومن يدري ؟ ثم ضحكت وقالت : تعالى أيتها الفتاة المقدرة المدبرة فقد أعد الطعام .

مرت أيام فسافر على الحمamy إلى رشيد ، وبقيت زبيدة فى بيت خالتها ، تلاقى فيه صنوف الكرامة والعطف ، وتزور بها خالتها سيدات القاهرة وكرائم أسرها .

وبينما هى جالسة ذات صباح مع خالتها إذا إحدى الخادومات تقول : إن سيدى محموداً العسال قد حضر ، وهو يصعد فى السلم . فأسرعت زبيدة إلى شعرها تسويه ، وإلى ثوبها تصلح من غضونه ، وقد دق قلبها واحمر وجهها ، ولحمتها خالتها فتهدت . ثم دخل محمود مشرقاً بساماً ، فحيا زبيدة وقبل يد خالته أمينة ، التى أخذت تصب عليه وابلاً من عبارات الترحيب ومختلف الأسئلة ، فقص عليهما كل ما لديه من أخبار رشيد . وهنا زبيدة بسلامتها ، ثم اتجه إلى السيدة أمينة قائلاً : لقد أدهشنى اليوم أن أرى حوانيت المدينة مقفلة ، وأن أرى الناس فى الشوارع

جماعات يتهامون كأنما حزبهم أمر ، أو حلت بهم كارثة .
 — لقد توالى عليهم المظالم يا محمود ، وكانت قاصمة
 الظهر تلك الضريبة الأخيرة التي لم تترك فقيراً ولم تُبق على
 غنى . فالذى رأيت اليوم مظهر من مظاهر سخطهم ،
 فإنهم إذا فدحهم ظلم أغلقوا متاجرهم والتجثوا إلى الأزهر
 يستغيثون برجاله .

— فجز محمود رأسه في حزن وألم وقال : وبمن يستغيث
 رجال الأزهر يا ترى ؟

ثم أحس أن المجلس طال به ، فتحفز للانصراف ،
 وودعته خالته وذهبت معه زبيدة خطوتين أو ثلاثاً ، فنظر
 إليها نظرة طويلة وقال :

— متى يا زبيدة ؟ فأسرع إلى نجدتها عذرها الذي خدعت
 به خالتها ، فست كتفه في رفق وقالت : حتى يخرج الفرنسيون
 يا محمود .

٧

ذهب محمود إلى سوق المغاربة غاضباً أسفاً ، يفكر في
 هذا العذر الجديد الذي سدت به عليه زبيدة طريق الأمل ،
 وسأل عن الحاج محمد السوسي فأرشد إلى دكانه ، فرآه

مغلقاً ، ثم سأل عن داره فوصفت له ، فطرق بابها ففتحت له الخادم خائفة مرتابة ، فقد تكرر في هذه الأيام تطفل الجند على المنازل . ولما سمعت لورا صوته كاد يحن جنونها ويضطرب ميزانها ، وشعرت بنار مشتعلة تدب في أوصالها ، وودت لو أنها قطعت السلم بوثة واحدة ، لتقع بين ذراعي حبيبها ، وتغمر وجهه بالقبل ، ولكنها كبحت جماحها جهد ما تستطيع ، واستنجدت بالطبيعة الإنجليزية الرزينة ، وقالت دون أن ينم صوتها عن شيء : أبي ! إني أسمع صوت محمود العسال بالسلم . فهض نيكلسون فرحاً وصاح : أهلاً بولدى ، أية ريح سعيدة طوحت بك إلينا ؟ لن أحس بعد اليوم ألم الغربة والنفي . ثم عانقه طويلاً وشد على يديه في محبة وشوق ، وتقدمت إليه لورا تتكلف الابتسام وتجاهد عينيها ألا تهتكها لها سراً ، وقالت في تلثم : مرحباً يا محمود ، إنك صورة من رشيد التي أحبها ، فاليوم أراها كما هي ولا أشعر بلوعة نحو أهلها . ثم جلسوا إلى القهوة بعد أن أعدتها لورا ، وبدأ نيكلسون الحديث فقال : كيف حال الفرنسيين في رشيد ؟ فأجاب محمود وقد زاد سخطه عليهم وعزم على أن يبذل نفسه في مقاومتهم ، بعد أن سمع من زبيدة اليوم أنهم الحائل بينه وبين التزوج بها : لقد أرسلوا إلينا بحاكم مضطرب الرأي ، يلين مرة حتى تظنه ماء زلالاً ،

ويقسو أخرى حتى تحسبه نار الجحيم . لم يف بوعده واحد من تلك الوعود التي ملأ بها خطبه وأحاديثه ، والرشيديون في جمهورتهم لا يثقون به ولا يلقون إليه بقياد ، وهم كتلة مخيفة من العصيان والتمرد ، فقد ضرب على الأهلين ضريبة فادحة ، قوبلت بثورة صاخبة وعصيان جامع ، ولولا هذه المدافع الحديدية ما استقر لهؤلاء الغزاة أمر . وفي مساء يوم رأى أحد العلماء الذين قدموا مع الحملة - ويسمونه دينون - من برج أبي منظور العمارة الإنجليزية وهي تهجم على العمارة الفرنسية بأبي قير ، وتصلها نارا حامية ، وسمع أهل المدينة الضرب عنيفا متواصلا ، وطارت إليهم الأخبار بأن الإنجليز دمروا جميع سفن الفرنسيين ، فوثبوا من الفرح ، وطاشت عقولهم ، ومشوا في جماعات يصيحون ويهللون ويكبرون ولم يستطع مينو أن يعمل شيئا فأغضى إغضاه الدثب الضغن الحقود .

- حقا إنه كان نصرا مينا يا محمود ، فإن هذه الموقعة ستسد الطريق بين نابليون وبلاده ، وستقضى على آماله في ضرب إنجلترا بالهند وإنشاء دولة شرقية فرنسية . وستشد من عضد الممالك الضعيفة بأوربا وتدفعها إلى محاربة فرنسا وتحديها .

- لله الحمد والشكر . ثم قام أهل رشيد بثورة عنيفة ،

حينما وصلت السفينة التي تحمل السيد محمد كريم مصفداً
ليشئ بالقاهرة .

— إن هذا السيد بطل من أبطال التاريخ يا محمود ،
وكل جريمته عند الفرنسيين أنه جاهد في سبيل وطنه ،
وكتب سرّاً إلى مراد بك يدعو إلى صدهم ومحاربتهم .
ولقد علمت أنه لقي الموت شهيداً كريماً ، وأن الفرنسيين
راودوه على أن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال ، فأبى
في ازدراء وشمم ، وأجاب فانتور كبير ترجمة الحملة وهو
يلح عليه في قبول الفدية ، ويلحف : « إذا كان مقدراً
على أن أموت فلن يعصمني من الموت مال . وإذا كان
في الكتاب أن أعيش كان بدل المال عبثاً » ثم ضرب بالرصاص
في ميدان الرمي له فلقى ربه شهيداً . فلمعت عينا محمود وقال .
إن البطولة لن تموت ، وهذا معنى قوله تعالى : « ولا تحسبن
الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

— هذا صحيح يا محمود ، أعندكم هذا في كتابكم ؟

— نعم ، وكم في القرآن من أدب وتشريع وحكمة وهداية .
ثم إن الذي يزيد في سروري ويبعث في نفسي نشوة الأمل ،
أن مينو قلق به مكانه في رشيد وأحسن بالخرج ، فقد قبض
أحد العربان على رسول له إلى كليبر حاكم الإسكندرية ،
فرأى معه رسالة ترجمها لنا أورلندو ، يلح فيها على كليبر في

إمداده بالرجال ، لأن حاميته لا تزيد على أربعمائة رجل ،
 ويخبره أن العرب يزعمونه ليلاً ونهاراً ، وأن الأهلين يشورون
 عليه لأقل سبب ، وأنهم استخفوا بسلطة الفرنسيين بعد
 نكبة أسطولهم . ثم يقول : لقد تخرجت من هنا ، فإني
 ما جئت من فرنسا لأدفن في هذه المدينة ، أو لأقوم فيها
 بجمع الضرائب .

— سمعنا أنه أحرق قرية السالمية .

— نعم ، فقد قتل بعض رجالها ثمانية من جنده ، فأمر
 بقتل كل من يحمل السلاح فيها ، وصادر جميع ما بها من
 الماشية ، ثم أضرم النيران في القرية .

— هذا أمر له ما بعده يا بني ، وسيف الظلم مفلول دائماً .
 هلم لنشهد اليوم اجتماع الناس بالأزهر . فقد أخبرني الشيخ
 إسماعيل البراوي أن رجل الثورة يغلي بالقاهرة ، من أجل
 هذه الضريبة الحديدية الفادحة ، التي ستأتي على كل ما
 بقي عند الناس من صامت وناطق .

ثم سارا صوب الجامع الأزهر فسمعا المؤذنين وهم يؤذنون
 لصلاة الظهر ، ويتبعون أذانهم بدعوة ملتهبة إلى الثورة
 والجهاد ، فدخلوا المسجد فإذا هو يدوي بما فيه من الحشد
 العظيم ، وقد ارتفعت أصوات الغضب ، وبسرت الوجوه ،
 وأخذ كل شخص يتكلم ويسمع في آن ، وحلس إلى جانب

القبلة الشيخ السادات ، والمشايخ : يوسف المصيلحي ،
 وإسماعيل البراوي ، وعبد الوهاب الشبراوي ، وسليمان الجوسقي ،
 وأحمد الشرقاوي ، وهم مساعير الثورة ومؤججوها . ثم وقف
 الشيخ يوسف المصيلحي ، وكان ذرب اللسان ملتهب الوطنية
 قوى التأثير ، فقال :

« يظن الفرنسيون أن مصر أفقرت من الرجال ، وانحلت
 فيها العزائم وكلت الهمم ، وأنها شعب من نساء لا يميز فيه الرجل
 من المرأة إلا عمامة ولحية ، وأن أهلها قطيع من الغنم نام
 عنه رعاته ، وتركوه نهياً للذئاب . وهم يتندرون في مجالس
 مجونهم وعلى كؤوس شرابهم ، يحبن المصري وهلعه من السيف
 والمدفع ، وأنه إذا رأى جندياً فرنسياً في الطريق أقعى له
 في ذلة وخنوع كما يقعى الكلب . فهل هذا صحيح ؟ » .
 فهزت أصوات جوانب المسجد صائحة في غيظ وغضب :
 — كلا . كلا .

— نعم . كلا ، وكذب ما يظنون ، فإنني أرى في هذه
 الوجوه غضبة الأسود لعريتها ، وحمية الشجاع الباسل لعرضه
 ودينه . أنتم أبناء الفاتحين ، ولأجدادكم سجل من المجد
 والجهاد لا ينقصه إلا أن تنقشوا تحته أسماءكم بسلاحكم .
 فهلموا إلى المجد والشرف هلموا ، هلموا إلى الجنة والشهادة
 هلموا . فلا نامت أعين الجبناء ، ولا هدأت قلوب المعوقين

والمنافقين ! لقد طال بكم أمد الصبر فماذا بقي لكم أن تصبروا عليه ؟ لقد ألزموكم حمل شارة الفرنسيين ، وافتنوا في فرض الضرائب ، وهدموا أبواب الحارات حتى لا يعوقهم عن الهجوم عليكم في ظلمة الليل عائق . هل نحن أمة محمدية ؟ هل نحن أمة جعل الله الجهاد في مقدمة فروضها ؟ أيها الشجعان البسلاء : ثوروا لكرامتكم ، ثوروا لوطنكم ، ثم ثوروا لتاريخكم » ، وهنا انفجرت حماسة محمود العسال ونفدت طاقته العصبية فصاح : كفى كفى بالله عليك يامولانا ، فلن ترى منا مصر بعد اليوم إلا رجالاً أرواحهم في أسنة رماحهم . ثم اتجه إلى الناس ونادى : هلموا معي إلى الجهاد . فرددت الجموع الزاخرة صوته : إلى الجهاد ! إلى الجهاد ! وتزاحوا إلى أبواب الجامع يتقدمهم محمود ووراءه نيكلسون ، وما كان يشك من رأى الأمواج المتدفقة من الناس ، في أن أيام الفرنسيين بمصر أصبحت تعد على أصابع اليدين . اشتعلت الثورة بالقاهرة وتقدم محمود الثوار ، فأخذوا سمتهم إلى مخافر الجنود الفرنسية فقتلوا عليهم ، وازدحمت بالناس شوارع الموسيقى والغورية والنحاسين وغيرها ، وجاء الجنرال « ديبوى » حاكم القاهرة ليصد الثوار مع طائفة من فرسانه ، فأطبقوا عليه ، وأصابه أحدهم بطعنة من رمحه فخر صريعاً مجدلاً ، فزادت بذلك حميتهم ، وتكاثر عددهم

بمن انضم إليهم من أرباض القاهرة ، واستولوا على
 المواقع الحصينة : كباب الفتوح ، وباب النصر ،
 والبرقية . وباب زويلة ، وباب الشعرية ، وأخذوا يحفرون
 الخنادق وينشئون الحصون ، ويطلقون منها النار على الفرنسيين .
 وأدرك الفرنسيون الخطر المحدق بهم ، فجمعوا جموعهم
 وعزموا على استئصال الثورة بالحديد والنار . وقضى أهل
 القاهرة الليل في تأهب وإصرار ، وكان محمود يمر على من
 بالخنادق والمتارس حافزاً للعزائم ، مثيراً للهمم ، حتى إذا
 بزغت شمس اليوم الثاني كان الفرنسيون قد احتلوا جميع
 المرتفعات خارج المدينة ، ونقلوا إليها مدافعهم وذخيرتهم ،
 فأرسلوا منها القذائف متتالية مرهبة على نواحي الأزهر
 والصنادقية ، والغورية ، والفحامين ، حتى أوشك الأزهر
 أن يتداعى من شدة الضرب وأن يسقط على الجماهير
 الحاشدة به . وصارت الأحياء المجاورة صورة من الخراب
 والدمار ، فهدمت البيوت ، وماتت تحت أنقاضها آلاف
 من السكان البائسين ، وطال الهول واشتد وعجز الإيمان
 الأعزل أن يقف أمام الطغيان المسلح ، فسقط في أيدي
 المصريين ودارت عليهم الدائرة ، واستشفعوا بالمشايخ عند
 نابليون أن يرفع عنهم سخطه وغضبه ، ولكنه بعد أن
 أسكت عنهم أصوات المدافع أطلق جنوده تعيث في القاهرة

كما تشاء ، وتتحكم في الناس كما تشاء ، فدخلوا الأزهر
بخيولهم وعبثوا بما فيه من كتب وخزائن .

إن نابليون كسب المعركة وقضى على الثورة ، ولكنه
قضى معها على كل أمل له في اجتذاب المصريين ، وعلى
كل عاطفة تنبض بها قلوبهم .

وخرج محمود من الثورة كالسيف المحطم ، تحطم جسمه ،
وتحطمت روحه ، وتحطمت آماله . فأسرع إلى بيت ابن عمه
يائساً حزيناً ، وانطلقت شياطين الجواسيس من عقلاها تقبض
على كل من كان له ضلع في الثورة ، واعتنقت آلة الإعدام
كل من حامت حوله شبهة فقضت عليه ، ومل الفرنسيون
تكلفهم المودة للمصريين فصارحهم العداء ومشوا لهم الضراء ،
وعرف المصريون بعد هذه الكارثة أن الخطب والمؤامرات
شيء ، والسيف والمدفع شيء آخر .

وذهب نيكلسون إلى بيته يحمل لابنته لورا حوادث
الثورة ، وما رآه من جرأة محمود وبطولته ، وقذفه بنفسه
بين براثن الموت ، ثم زفر وقال : لقد كان بطلا حقاً ،
ولكن ماذا تفعل العضد أمام السيف الحسام ؟

— لقد كنت أتوجس خيفة عليكما ، وكلما سقطت
القذائف من القلعة وقم المقطم ، كنت أدخل تحت
السريـر فأسجد وأصلي لكما . أهو بخير يا أبي ؟

— بخير وعافية ، ولكن شعوره بالهزيمة يكاد يقضى عليه .

— هذه طبيعة الشرقيين ، فنى يعرفون أن الهزيمة دائماً

أول حافز إلى الظفر ؟ أتصدق يا أبى أنى مسرورة بتتائج هذه الثورة ، إنها لم تنجح فى مرآى العين ، ولكنى أعتقد أنها بلغت غاية النجاح ، وأن الفرنسيين لن يتم لهم أمر بعدها فى مصر . لأنك إذا وضعت هذه الثورة إلى جانب تحطيم نلسون لأسطولهم ، رأيتهم فى مصر كأنهم فى بيت يحترق ، وقد حرموا كل وسائل النجاة .

سمر وتوالت الأيام ، وخرج محمود من مخبئه ، وأكثر من زيارة نيكلسون ، ورأى من لورا عطفاً سحريراً شفى مريض نفسه ، وبعث فيها أملاً جديداً . فحديثها حلو ، وخلقتها كريم ، ومعدنها ذهب نضار . ثم هو إذا رفع إليها عينيه رأى الجمال الهادئ المطمئن ، الذى لم يحاول مرة أن يكون جميلاً فبز كل صنوف الجمال . كان ينصت إليها فيسمع أدباً وحكمة ، ويتعلم كثيراً عن الدنيا وأحوالها ، والدول وسياساتها . وكانت تنظر إليه نظرة حنانة حاملة ، فتلتقي بها نظراته فيحس بأريحية يكاد ينتفض لها جسمه . سمه ميلا ، أو سمه حباً أخوياً ، أو سمه ما شئت فإنه شىء للذيد وكفى . أكثر محمود من زيارة لورا واصطحبها لزيارة زبيدة كثيراً ، وكانت زبيدة تسر بلورا وتأنس بها ، حتى لقد

كانت تلزمها البقاء معها بيت خالتها أياماً .
 وفي صبيحة يوم قدم السيد على الحمامي من رشيد ،
 وأخبر زبيدة بأن أمها في شوق إليها ، وأنها مريضة منذ
 حين ، وأنها ألحت عليه أن يسافر إلى القاهرة ليعود بها ،
 فلم تجد زبيدة بداً من السفر ، فترلت في سفينة إلى رشيد ،
 فودعها محمود العسال ولورا بين الزفرات والتهدات ، ومال
 محمود على أذنها ، فأجابته في ضحكة متكلفة : لم يبق
 إلا القليل !

٨

جلس مينو في صدر إيوان بيته في رشيد تحفه تلك العظمة
 الحبيبة إلى نفسه ، والآهة التي تميل إليها غرائزه ، والجنود
 والديدبانات الفرنسية تحيط بأسوار الدار شاكي السلاح ،
 في أزهى ملابسهم وأروع ما به يظهرون ، والخدم والأغوات
 يذهبون ويحيثون في اهتمام وخشية ، يدلان على جلالة شأو
 المخدم وشدة صرامته ، واحتفاله بصغائر الأمور .
 وكان في مجلسه ذلك اليوم الجنرال « مارمون » و « دينون »
 الأديب الكاتب الفرنسي ، و « دولوميو » الرسام ، وهما
 من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، والطبيب « شوفور » .

بدأ مينو الحديث في شيء من التضجر والسأم عما يحيط
برشيد من الثورات التي لا ينطفيء أوارها ، ثم هز كتفيه
وقال : عجيب أمر هذه الثورات ، إنها مع حقارتها وهوان
خطرها ، تشغل منا وقتاً كان أولى بنا أن نصرفه في
عظام الأمور .

فهز « مارمون » رأسه وقال : إننا نكاد نكون قد أخطأنا
الطريق في سياسة هؤلاء المصريين ، وقد كان عدد الجنود
الذين فتحنا بهم مصر يمكن أن يكفي ، لو أن الطريق بيننا
وبين فرنسا بقيت مفتوحة آمنة . أما الآن ، فقد اضطررنا
إلى تشتيت هذه القوة الصغيرة في الصعيد لمحاربة مراد بك ،
ثم في جميع أنحاء مصر السفلى ، لأن الثورات لا تكاد
تنقطع فيها ، وبذلك تمزق الجيش وقتل من الجنود عدد
عظيم . وهنا قال دينون :

— ومن العجيب أن يترك نابليون هذا الأتون الملهب
بالثورة والعصيان ، ويقتطع من هذا الجيش الضئيل ثلاثة
عشر ألف جندي مع كبار قوادهم ، ليذهب لغزو سورية ،
كأن مصر قد استقر بها كل شيء ، واستقام بها كل أمر .
فنظر مينو إلى دينون نظرة المغضب وقال :

— أنت لا تعرف نابليون . إن سر عبقريته إنما هو
في تحدى الأقدار والسخرية من الكوراث . إنه ليس

رجلا مثلك أيها الفنان الأديب . إن العقول تستطيع أن تحلل الأشياء في مدى محدود ، أما أعمال العباقرة ففوق منال العقول .
وهنا أطرق مارمون وقال :

— إن المقامر قد يلتق بما بقى له من مال ليكسب الدست !
فقال مينو :

— لا يا مارمون . إن المقامر ليست له بصيرة نابليون
التي تكشف الغيب ، ثم إنكم تبالغون في شأن هذه الثورات ،
ولو كنت على رأس خمسمائة جندي لأطفأتها جميعاً . ولكن
هذه الدنيا تعطى السيف دائماً لصاحب المحراث ؛ ثم زفر
وقال : عجيب ألا يختارني نابليون وكيلا له بالقاهرة بدل
« دوجا » ، ولكن يظهر أن حماية الشجر أهم وأعظم . فأجاب
دولوميو : من غير شك .

ثم انصرف القوم عدا الطبيب شوفور ، وبقى مينو
مطرقاً ، فقال شوفور :

— إن سيدى يكثر التفكير ويبدو عليه القلق ، وقد
لحظت منذ أيام أن صحته ليست على ما أحب له . فرفع
مينو رأسه وقال :

— إننى أعيش هنا يا شوفور عيشة الأسير ، وهذا
الجو المحدود أضيق من أن يتسع لآمالى ، وكلما أطلت
التفكير فى أمرى برح بى الحزن واشتملنى عارض

يشبه الخيال ، إننى خلقت للعظمة والمرح . أما العظمة : فقد لقيتها هنا فى صورة ضئيلة لا تكاد تتعدى حدود رشيد ، ولو أننى ملكت فرنسا كلها ما قنعت بها نفسى . وأما المرح : فقد تركت ورائى منه فى باريس ما لا يمكن أن يعود .

— لا بد للنفس الكبيرة والعقل الدائب المفكر من المرح واللهو . ولو لم يغسل عبث الليل ولهو آلام كدح النهار وكده ، لتبلد العقل وقتله الإعياء .

— وأين منا السبيل إلى اللهو فى مدينة نصفها مساجد ، ولأهلها عيشة الرهبان والراهبات فى الصوامع ؟
— السبيل الزواج يا مولاي .

— الزواج ؟ وهل لرجل مثلى من أعرق الأسر الشريفة بفرنسا ، أن يتزوج بفتاة إفريقية شوهاء ، ليس لها قدم فى المجد ، ولا لآبائها ذكر فى التاريخ ؟ !

— أما الفتاة الإفريقية الشوهاء فلا وجود لها فى رشيد ، إن بهذه الدور التى يمر بها مولاي فوق جواده ، لآلى بشرية لم تقلد بمثلا كنوز البحار .

أنا طبيب يا سيدى وتقتضى صناعى أن أرى الوجوه ، وقد رأيت من حسناتها هنا ما زهدنى فيما بالغ فيه الشعراء وأبدع فيه المثالون . وأما الشرف : فإن فى رشيد منه ما فى

فرنسا . إن الشرف هنا لا يكون بالانتماء إلى بطل ، وإنما يكون باتصال النسب بالنبي الكريم ، وهذا خير ضروب الشرف والتبيل .

— في رشيد من الأسر من ينتمى إلى النبي محمد ؟
 — كثير جداً ، لأن أهلها من قريش نزحوا إلى رشيد بعد فتح العرب بقليل ، ولكننا نريد شيئين : الشرف ، والجمال . وهذان لا يجتمعان في رأيي إلا في أسرتين : أسرة الشيخ الجارم ، وأسرة السيد محمد البواب ، فاتجه إليه مينو في شغف وقد أعجبه الحديث وقال : حدثني عنهما يا شوفور ، حدثني . . .

— أما رقية وآمنة بنتا الشيخ إبراهيم الجارم : فجمالهما فوق وصف الواصف . وأما زبيدة بنت السيد محمد البواب فلإنها في الحق ساحرة فاتنة .

فجحظت عينا مينو وقال : هذا بديع جداً ، ولكن ماذا أفعل بخليلائي اللاتي يخطثن العد بفرنسا وإيطاليا . إن أظافرهن لن تقنع بتمزيق جلدى !

— وأين هن منك اليوم وبينك وبينهن المهامه الفصح والبحار الخضر ؟ إن الفرنسيين سيؤسسون بمصر مملكة شرقية واسعة الأطراف ، وسيكون لك فيها الشأن الأول والملك العظيم .
 — هذا ماتحدثني به نفسى ، وإذا لا بد من الزواج ،

وبمن أتزوج ؟ سأختار بنت الشيخ الحارم ، لأنه فوق شرفه النبوى من أكبر علماء المدينة .

— غير أن فى الأمر عقبة يجب أن تذلل ، تلك أن الإسلام يحظر تزوج المسيحي بمسلمة .

— ألسنت مسلماً ؟ ألم يشهدنى أهل رشيد فى مسجد المحلى وأنا أقوم وأقعد حتى كدت ألث من التعب فى صلاة التراويح ؟

— أظن أن هذا لا يكفى ، فإن عقد الزواج فى مثل هذه الحال يجب أن تسبقه وثيقة مسجلة بالإسلام ، على أننا نستطيع أن نسأل مفتى المدينة فى هذا الأمر .

فوثب مينو يصفق بيديه يدعو مملوكه الخاص « إينال » ، فلما مثل بين يديه ، أمره أن يدعو إليه الشيخ أحمد الحضرى . حضر الشيخ الحضرى بعد قليل ، وهو خائف يرتعد لهذه الدعوة التى فاجأته فى جوف الليل ، وأخذت شفتاه تتمتان بالأدعية وضروب الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، فسلم على الجنرال ، وجلس بعد أن جمع ثيابه وتكور فى عباءته كأنه صوان ضخيم للشباب ، وبعد أن هدأت نفسه قليلاً اتجه إليه مينو سائلاً :

— ما قول مولانا المفتى فى مسيحي أسلم ، أيجوز أن يتزوج بمسلمة ؟

— نعم يجوز شرعاً إذا ثبت إسلامه لدى مسجل العقود

بالطرق الشرعية .

— وما الطرق الشرعية ؟

— الإقرار والبينة . وأقوم السبل أن يقدم هذا الرجل إلى المسجل وثيقة شرعية بإسلامه .

— إننا في فرنسا لا نتشدد هذا التشدد ، فالناس أحرار في عقائدهم وتصرفاتهم .

— إن الإسلام أيها الجنرال يدعو إلى الحرية ، ولكنه يحيطها بسياج حتى لا يضر بعض الناس بعضاً بتصرفاتهم ، والله جل شأنه يقول في كتابه الكريم : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

— هذه حكمة يجب أن تكون أساساً لجميع القوانين . لقد أفدتنا كثيراً يا مولانا ، وقد دعوتك لأن جدلاً قام بيني وبين شوفور فيما سألتك عنه . يا إينال مُر بعض الجنود أن يكون في خدمة الشيخ حتى يصل إلى داره .

مضى بعد ذلك يومان قضاهما مينو في التفكير وتقليب وجوه الرأي ، وذهب في أثنائهما الشيخ الحضري إلى الشيخ إبراهيم الجارم ليقضى السهرة بداره على عادته ، وجاء ذكر الفرنسيين وأعاجيب أفعالهم ، كما كان يجيء في كل ليلة ، فقال الشيخ الحضري :

— دعاني الجنرال ليلة أمس بعد أن ذهبت إلى فراشي ،

فلما كنت عنده سألتني سؤالاً عجيباً ، فقال الشيخ الجارم :
 - عن أى شيء سألك ؟

- سألتني عن صحة زواج المسيحي الذي أعلن إسلامه بمسلمة .
 فأحس الشيخ الجارم - وكان بعيد النظر نافذ
 البصيرة - أن وراء هذا السؤال داهية دهماء ، توشتك
 أن تسقط على المدينة ، ودفعته غريزة الحذر أن يكتم عن
 الشيخ اهتمامه فقال : إن هذا الرجل أخطأته عمامة الفلاسفة ،
 وقد خرف القدر فسماه جنرالاً ، ولعل اهتمامه بسؤالك عن
 الزواج وغيره خطرات من وساوسه التي لا يفيق منها .

وانقضت السهرة وودع الشيخ ضيفه ، وجلس واجماً
 وقد حمل رأسه براحتيه ، وتواردت عليه الأفكار والهواجس ،
 وأخذ يحدث نفسه : هذا المينو يريد أن يتزوج ، ما في ذلك
 من شك ، ثم هو يريد أن يتزوج بمسلمة ، وهذا بديهي
 أيضاً . وما شأني أنا بهذا ؟ فليتزوج فلن أستطيع دفعه ،
 ولكنها مصيبة ستحل بأسرة في رشيد ، وبأبي الأسر تتزل ؟
 بأكبر الأسر وأرفعهن شأنًا ، لقد قرب الخطر مني ، وأخذت
 النار تمتد إلى ثيابي . إن لي بنتين ، فياللكارثة ! كيف أدفع
 هذا العار عني ، إن كلمة « لا » أصبحت في عرف
 الفرنسيين لا تفيد النفي ، وإذا استطاع شجاع أن يقوها
 فلن تكون نهايته إلا الذل والدمار . إن هذا الجنرال سيظن

أن زواجه بأكرم بنت في المدينة تنزل منه وتواضع ، وشرف عظيم وتفضل واسع على من يصاهره . فالويل كل الويل لمن يرد هذا الشرف المزعوم في وجهه ، أو تبدو منه أية رغبة عن هذا الفضل العظيم ! أليس من مفر ؟ أليس من حيلة ؟ ليتني زوجتهما منذ حين ، وليتني لم أزد عنهما الخطاب كما يذود حارس البستان الطيور عن ثمره ! إنني واثق أن إسلام الجنرال رياء ، ولو كان مسلماً حقاً ، وأخلاقه أخلاقه التي أعرفها ، ما رضيته زوجاً لأية فتاة تتصل بي من بعد أو من قرب . لا . لا . لا . لا إن هذا لن يكون . ثم رفع رأسه وبدأ في عينه بريق الظفر ، وهدأت نفسه هدوء من يهتدي إلى حل أمر عسير ، فنادى بخادمه وقال : — اذهب الآن مسرعاً وادع إلى الشيخ عثمان شبائك ، والشيخ حسيناً أبا السعود ، أتعرفهما ؟ إنهما الطالبان اللذان يجيئان هنا في عصر كل يوم لتلقى الدروس . واذهب بعد أن تدعوهما إلى بيت الشيخ محمد غرا ، واطلب منه أن يعجل إلى .

وأقبل الطالبان بعد قليل فحياهما الشيخ وقال : إنما دعوتكما في هذه الساعة لأعرض عليكما زواج بنتي ، فقد أدركني الهرم وخشيت إن أنا مت أن يزوجهما أخوهما من غير العلماء . وقد تعجبان من هذا العرض المفاجئ ،

ولكن لو علمتما ما أحاط بي من الوسوس والهموم لزال عجبكما . فنظر الطالبان إليه في ذهول . وقال أولهما : هذا شرف كبير يا مولانا يطير اللب ويثير العجب ، وإنما نحن خادما لك اللذان يتنافسان في حمل نعليك ، فإذا تفضلت علينا بهذه الكرامة ، فليس لنا إلا أن نشعر بأن ما أصبناه من خير إنما هو بركة من بركاتك ، ونفحة من نفحاتك . ثم انقضا على يديه لثما وتقبيلا وهنا دخل الشيخ محمد غرا ، فطلب منه الشيخ أن يدون عقدي زواج ، لأنه زوج الشيخ شبائك برقية بنته ، والشيخ أبا السعود بآمنة . فأنزعج الشيخ غرا وشرع يتلعم ، ولكن الشيخ صوب إليه عينين غاضبتين ، فاستل قلمه وكتب .

وفي بكرة النهار أقبل أعوان مينو يتواثبون إلى دار الشيخ الحارم حتى ملئوا رحبها ، وهم يتعجلونه إلى مقابلة الجنرال ، فخلل الشيخ لحيته بأصابعه — وقد كانت تلك عادته إذا أحس بظفر أو كتم شامة في عدو — ثم وجد نفسه وهو ينشد :

فأصبحت من ليلي الغداة كقابض

على الماء خائنه فزوج الأصابع !

وركب الشيخ بغلته وسار معهم وهو يردد في همس خافت استغاثته التي أغرم بترديدها :

نحن بالله عزنا والحبيب المقرب
 بهما عز نصرنا لا بجاه ومنصب
 والذي رام ذلنا من قريب وأجنبي
 سيفنا فيه قولنا حسبنا الله والنبي

حتى إذا كان بحضرة مينو فجاء الجنرال بمحاضرة
 طويلة الديول عدد فيها أجداده الأبطال ، وما كان لهم من
 أثر مجيد في تاريخ فرنسا . وأطال في إطراء شرف محتده
 ونبل أعراقه ، والشيخ مطرق يخلل لحيته بأصابعه ، ولسانه
 لا يفتر عن قراءة القرآن . ثم انتقل مينو إلى غايته فقال :
 وقد أردت ألا أضمن على هذا البلد بما يصلني بأهله ، فعزمت
 على إعلان إسلامي والإصهار إلى أسرة شريفة ، يتصل نسبها
 بالسلالة النبوية . وعلمت أن لك بنتين فلم أجد عليّ من
 عار إذا تزوجت بكبراهما . إن الناس سيدهشون حقاً لهذه
 المصاهرة ، ولكنهم لو علموا أن التواضع من أول صفات
 الجنرال مينو ما عجبوا . فرفع الشيخ رأسه وقال :
 — هذا ياسيدي شرف عظيم . ولو كنت أعلم ذلك الحظ
 السعيد الذي ينتظرنى ما زوجت ابنتي بالأمس .

— هذا شيء يؤسف له فقد كنت أرى أن تكون لي صهرًا .
 — ذلك تقدير العزيز العليم :

وهنا وقف مينو وفي وجهه دلائل الحقد والغضب ، فوقف

الشيخ وسلم وانصرف .

ولم يستقر مينو في مجلسه حتى أرسل في طلب السيد محمد البواب ، والسيد علي الحمamy ، فلما دخلا عليه دهمهما بطلب الزواج بزبيدة ، فكاد البواب يصعق لهول ما ألقى عليه ، وراعه الموقف وأصماه سهم القضاء . وأخذ الحمamy يسهب فيما سينا لهم من الشرف والجاه بهذه المصاهرة ، فأفاق البواب وقد سمع نفسه وهو يقول في خوف وتلعثم :
إني كنت أتمنى أن أنال هذا الشرف لولا . . . ولكن الحمamy أسرع فقال في صوت مرتفع حجب كل صوت :
إننا ياسيدي الجنرال طوع أمرك ، وإن نزولك إلى مصاهرتنا واختصاصنا بهذه الكرامة دون غيرنا ، فضل دونه كل فضل ، وكرامة ليس بعدها كرامة . وهنا هز مينو رأسه في كبر وأنفه وقال : سيكون الزواج بعد أسبوع ، فقال الحمamy إنها الآن بالقاهرة ، وسأسرع غداً إليها ، وفي يوم حضورها يتم الزواج .

خرج الرجلان من دار مينو ، فقال السيد محمد البواب للحمamy في ذهول :

- لقد قتلتني يا رجل وجلبت عليّ عار الأبد .
- إن هذا الزواج سيرفع من شأنك ويجعلك سيد المدينة .
- إني لن أشتري سيادة الدنيا بهذه الوصفة .

— هون عليك يا عم ، فلن يضيرك أن تكون صهر أكبر جنرال فرنسى ، ولن تلبث حتى يتراحم عليك وفود المهنتين من كل مكان .

— لن أبقي فى المدينة حتى أرى واحداً منهم !

— سألتك بالله أن تترىث يا عم ، فإن الوهم يلعب برأسك ، ويصور لك من حادث يتمناه الناس جميعاً خطباً فادحاً .

— لن أبقي برشيد لأرى الناس يراءوننى ، ولو كشف عنهم الغطاء لبدت قلوبهم وكلها زراية بى واحتقار وسخرية .
ماذا تظننى يا رجل ؟

لأننى لن أعيش فى مدينة كل ما فيها ومن فيها يذكرنى بأن ابنتى فى عصمة إفرنجى مغتصب .
— ولكنك ستقتل أُمى .

— إن الموت قد يكون أحياناً خيراً من الحياة .

— يا للمصيبة ! وماذا نعمل الآن ؟

— ماطل الرجل إن استطعت ومنه الأمانى ، فلعل الله يعقب بعد عسر يسراً .

— لن أستطيع يا عمى . لأننى إن فعلت فتك بنا جميعاً وصادر أموالنا ، فإنه إذا تملكه الغضب انقلب أسداً هصوراً .

— الله أقوى منه . سأرحل الآن حيث لا يعلم أحد مكانى ، وقد أعددت العدة للسفر قبل أن أذهب لمقابلة الرجل ،

فإني أوجست منه شيئاً . ثم انقلت هائماً نحو غرب المدينة ،
فاكترى بغلا سار به في طريق الإسكندرية ، منطلقاً في
عجلة كأنه الصيد المدعور .

وسار الحمamy إلى أمه حزيناً ، ولكنه ما زال بنفسه في
الطريق حتى مسح عنها الحزن ، وصور لها ما يستقبله من
الثروة والجاه ورفيع المتزلة فاطمأنت ، ثم طغى عليه سيل من الأمانى
والأحلام فسخر من عمه ، وهزى من تزمته وتخرجته ، واعتقد
أنه رجل لا يفهم الحياة ولا يهتبل الفرص . وما دام الزواج
شرعياً فأى شيء فيه من العار الذى يتخيله الأغبياء المتحذلقون ؟
دخل على أمه ضاحكاً مرحاً ، وألقى إليها الخبر فى جدل
وابتهاج ، وأخذ يسهب فى وصف الجنرال وكرم أخلاقه
وشدة تمسكه بدينه ، وأن كرائم الأسر فى رشيد ستحسد
أخته على هذا الشرف الباذخ ، الذى طالما ترامت على
أعتابه فلم تظفر منه بطائل .

— وهل قبل أبوها ؟

— قبل مسروراً ، وسافر ليعد لزبيدة جهازاً يليق بالجنرال .

— أننى لا أعرف ما يعرفه الرجال ، ولكنى غير مسرورة

لهذا الزواج ، لأنه زواج غير عادى ، ولا أظن أنه ينتهى
بخير .

— دعى الأمر لله .

— آمنت بالله لا رب سواه .

وأسرع الحمamy إلى القاهرة في غد يومه ، واحتال لأخذ زبيدة ، فادعى أن أمها مريضة . ثم مضت أيام وصلت بعدها إلى رشيد ، وكانت أمها مريضة حقاً ، لأن غيبة زوجها أقلقته بالها وأقضت مضجعها ، وجعلتها تظن الظنون فدخلت عليها زبيدة فقبلتها باكية ، وحين سألت عن أبيها أخبرتها بأنه سافر منذ حين ، وسيعود قريباً . وحينما فجأها أخوها بنجر خطبتها تلقته ذاهلة أول الأمر ، وطاف بها خيال محمود وما له في سويداء قلبها من حب مكين ، ثم طاف بها خيال العرافة رابحة ، وتنبهت فيها غرائر الطموح ، وقضت الليل كله تحمل ميزاناً من الوهم ، تضع مينو في إحدى كفتيه ومحموداً في الأخرى ، فمرة ترجح هذه ، ومرة ترجح تلك . وكانت تثب من سريرها وتقول : هذه هي الموقعة الفاصلة في حياتي ، فأى الرجلين أختار ؟ مينو ليس الآن ملك مصر ولكنه قد يكون ، ومحمود أحب الناس إلى قلبي وأقربهم إلى نفسي . مينو إفرنجي يقولون : إنه أسلم ، ولكني لا أعرف أخلاقه وصفاته ، وهو ليس من جنسي ولا من قبيلي ، ومحمود ترب صباي وشقيق روحي ، وفيه صفات الأبطال وخلائق سكان السماء ، ولكن ليس لديه ملك ، وليس لديه عرش ، وليس لديه صوبلخان . مسكين

يا محمود ، لو كنت ملكا ! ولكن مالى وللملك أسلك إليه طريقاً مظلمة موحشة مجهولة . لا . لن أتزوج بهذا الفرنسي ولو انطبقت السماء على الأرض . ولكن من يدري فقد يكون هذا الرجل مطيبي إلى ما أريد ؟ إن العرافة لم تكذب قط ، فليم تكذب في أمرى وحدى ؟

وهكذا ظلت زبيدة تخطط وتهدى حتى بزغ النهار ، حينما ملأت الشمس الأفق غصت دار البواب بالزوار . وكان بينهم الحاج حسين الميقاتي ، والسيد على الحمamy ، والسيد أحمد النقرزان ، والسيد إبراهيم النقرزان ، فطلبوا من زبيدة توكيل الحاج حسين في تزويجها بمينو ، فوكلته أمام الشهود في تردد ووجل . وكان مينو أشهد على إسلامه قبل ذلك أمام القاضي الشرعى ، وسمى نفسه عبد الله جاك مينو ، واختار أن يكون الحاج أحمد شهاب وكيله في الزواج فاجتمع الوكيلان والشهود والمفتون بالمحكمة في اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وعقد لعبد الله مينو على زبيدة ، وزفت المسكينة الطموح إلى مينو بعد أسبوع ، فقذفت بسفينة حياتها في خضم قائم مضطرب الأمواج ، لا يهديها فيه إلا شعاع من أمل متقطع كاذب ، ولو نفذ إلى سمعها صوت من بين هذه الأمواج الصاخبة حولها ، لسمعت قهقهة القدر وهى تجلجل في شماته وسخرية .

بقى محمود العسال ونيكلسون بالقاهرة يرتقبان الحوادث ويتصلان بجماعات الثوار ، ويتكران الوسائل للانتفاض على الفرنسيين وزعزعة حكمهم في مصر ، وذهب محمود ذات صباح إلى متجره بخان الحليلي الذي يشرف عليه ابن عمه ، وبعد أن جلس قليلاً رأى آثار الحزن والوجوم بادية في وجه ابن عمه ، فحاول أن يتغافل عما بدا له لأن صبوس الوجوه وانقباضها ليس بالشيء الغريب في هذا الزمن الغريب ، ولكن حسيناً زاد ارتباكاً وانصرافه إلى الأمور التافهة وتجنبه النظر في وجه محمود ، فابتدره قائلاً : هل من جديد يا حسين ؟

- فتلعثم الفتى وحاول أن يتنسم فلم يستطع ، ثم نظر في وجه محمود نظرة حزن وإشفاق وقال :
- إن سعداً الشبامى المراكى جاء اليوم من رشيد .
- وماذا في هذا ؟ أمات أمى ؟
- لا قدر الله . إنه يقول إن سيدتى زينب بخير .
- هذا شيء يسر ، فلم أراك عابساً حزيناً ؟
- إن ما قص على من أعمال الفرنسيين برشيد أثار أحزاني .
- هذا شيء لا يقابل بالحزن ، وإنما يقابل بالجهاد

وجمع الكلمة وتوحيد الرأى .

— أخشى ألا نستطيع جمع الكلمة إلا بعد قوات الأوان ،
وبعد أن تداس كل كرامة ، وإن الحسرة لتمزق فؤادى حينما
أرى بعض الناس الذين تأبى الإنسانية أن ينسبوا إليها يساعدون
الفرنسيين ويتملقونهم ويدللون لهم السبل .

— إنهم ليسوا بأكثر ملقاً واستخذاء من العلماء أعضاء
مجلس الديوان الذين يحملهم الفرنسيون كل يوم على كتابة
منشور مملوء بالآيات القرآنية لتأييد حكم الغاصب ودعوة
الناس إلى طاعته . آه يا حسين ، إن مصر كانت مريضة
بأهلها ، فلما جاء الفاتح لم يجد بها مناعة تصد الداء الوبيل
الذى رماها به ، وماذا برشيد من أفانين مينو ؟

— علمت أن نزعتة الجديدة أن يزج بنفسه فى الأسر الكريمة .

— كيف ؟ يكثر من زياراتها ؟

— يكثر من زياراتها أو يصهر فيها .

— ياللكارثة ! يتزوج بمسلمة شريفة ؟ إن دون هذا

وتسيل الدماء ! من يقبل أن يزوجه ابنته ؟

— ليست المسألة مسألة قبول . إنما هى إلزام وقهر ، ومن

يستطيع أن يقف فى وجهه ؟

— أتزوج فعلا ؟

— نعم .

— بمن ؟

فتهد حسين وغلبه دمه وقال : بزبيدة .
فوجم محمود وذهل ، وألقى برأسه بين راحتيه ، وترك
عينيه شاخصتين كأنهما عينا المحتضر وقد جمد الدمع فيهما ،
وتملكه حزن وغضب حبسا لسانه عن الكلام والأنين . بقى
أكثر من نصف ساعة على هذه الحال ، ثم هب واقفاً وقال :
— ما أصابكم من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم
إلا في كتاب . ثم قال : كنت أحارب الفرنسيين للوطن ،
واليوم أحاربهم للوطن والشرف والانتقام . ثم انطلق مطرق
الرأس كمن به جنة ، ولزم داره أياماً ليبت حزنه لنفسه ،
ويرسل الدمع مدراراً دون أن يخاف رقيقاً أو ملياً .
غاب محمود فلم يزر نيكلسون أياماً ، فقلقت لورا ولعبت
بظنونها الأوهام ، فقالت في هيئة من عرض له أمر غير
خطير غير أنه يريد أن يتحدث ، بينما كانت تملأ فنجانة
القهوة لآيها :

— هل سافر محمود إلى رشيد ؟

— ما أظن يا بنتى ، فإنه لو عزم على السفر لأخبرنى .
إننى لم أره منذ أربعة أيام وقد شغلى عنه انصرافى إلى استهواء
ذلك الضابط الفرنسى حتى أصبحت جميع أخبار القيادة
العليا ملك يمينى وفى متناول كفى .

— عجيب أن ييوح ضابط بهذه الأسرار . كيف استملته يا أبي ؟

— الجنود يا لورا ساخطون على البقاء في هذه الديار ، وبخاصة بعد أن هددتهم الثورات وحوادث الاغتيال . وهم يعتقدون أن قدومهم إلى مصر لم يكن إلا لإشباع نزوة لنابليون المولع بأن يجلجل اسمه دائماً بين الطبول والزمور ، ولو أورد جنوده موارد التلف . ثم إنه ضللهم ودفعهم إلى الاعتقاد بأنهم سيجدون في مصر باريس أخرى ، فلم يجدوا من ذلك شيئاً . عرفت هذا الضابط أول ما عرفته بحانة للإفرنج بحارة الرويعي ، فرأيت فيه فتى وسم الطلعة ، يدل حديثه وملاحظه على أنه من الطبقة المتوسطة بفرنسا ، وعلمت من خادم الحانة أنه مرافق (ياور) الجنرال دوجا الذي قام مقام نابليون بعد سفره إلى سورية . رأيته جالساً وقد خيم على وجهه الحزن والسأم ، فبدأت الحديث عن الجو، فابتسم نحوي في وداعة وتأفف وقال :

— إن جو مصر خداع كنسائها ، فإنه يصفو لك يوماً ليديقك عذاب الجحيم أياماً وشهوراً . آه يا شيخ ! لو ذقت حرارة الجو حينما قدمنا مصر واخترقنا هذه الصبغاء الملعونة بين الإسكندرية ودمهور . عند ذلك قربت من نخوانه ، ومددت يدي إلى كرسي فجلست بجانبه ، ودعوت

الخدام أن يأتى بكويين من الجمعة . وطال بيتنا الحديث فى جمال باريس وجمال نساها ، وقبح القاهرة وقذارتها وانتشار الأمراض بها ، وجديها من مسارح اللهو والتسلية ، وبغض سكانها للفرنسيين . وقد أعلمته فى غضون الحديث أنى مغربى وأنى مولع بالفرنسيين ، أحب فيهم الشهامة والشرف وخفة الروح ، وأعتقد أن ثورتهم التى قاموا بها فى بلادهم للحرية والإخاء ستخلد أممهم على الدهر ، وستبقى مثلاً غالياً فى العالمين . فقبض على يدي وهزها فى جذل ونشوة ، واقتنصت الفرصة وأخرجت خاتمي الثمين من إصبعي ، وقلت : هذا يا سيدى . . فعاجلنى وقال : ألبير . ألبير . فقلت : هذا يا سيدى ألبير سيكون رابطة الصداقة والمحبة بينك وبين صديقك السوسى . فالتقطه ألبير مبهجاً وأخذ ينظر إليه دهشاً وقال : هذا لى ؟ قلت : نعم يا صديقى ، ولى من الثروة مالا يعدُّ هذا بجانبه شيئاً . ثم قمت بعد أن واعدنى على أن نلتقى عصر كل يوم بالحانة .

— وهل أخبرك بشيء يا أبى ؟

— أخبرنى أنه بعد أن سافر نابليون إلى سورية ظهر التمرد والانتفاض فى أكثر بلاد مصر السفلى ، لكثرة ما دهمى الناس من عبث الجنود ومصادرتهم لماشيئهم وحاصلاتهم ، فشبت الثورة بالشرقية ثم سرت نيران العصيان متأججة

مخيفة إلى ميت غمر ، والبلاد التي حولها ، ثم اشتد الهياج في منطقة رشيد وظهر بالبحيرة رجل ادعى المهديّة ودعا الناس إلى الجهاد ، وانضم إليه رجال القبائل وغيرهم ، وقد هزم الفرنسيين مرات حتى تكاثروا عليه آخر الأمر فقتلوه . وكان الفرنسيون إذا تغلبوا على مدينة فتكوا بمن فيها ودمروها . — هذا منطق مقلوب يا أبي . إن قلوب الأمم لا تملك بالقسر والقسوة .

— إن هؤلاء القوم يظنون يا فتاتي أن السيف هو قانون أم الشرق ، ولم يعلموا أن هذه الأمم هي التي علمت أوربا في القرون الوسطى قوانين سياسة الأمم ، وأرسلت إليها شعاعاً وهاجاً من المدنية والعلم . وبينما هما يتجادبان الحديث إذا طرق خفيف على الباب ، فقام نيكلسون يفتحه فرأى محموداً العسال فلم يملك إلا أن يعانقه مرحباً ، ثم صاح : لورا ! ها هو ذا محمود العسال الذي أقلق بالنا بغيابه طول هذه المدة ، فأسرعت لورا فرحة بلقاء محمود ، ومدت إليه يديها في حب أخوي صادق ، وقالت :

— لا يا محمود . . . إن مثلثنا المتماثل إذا غابت منه ضلع عاد منكسراً ؛ ثم قالت في مرجح لطيف : وإهمالك زيارتنا ذنب لا يغتفر ، فلا بد أن تؤدي لنا حساباً دقيقاً عما كنت تفعل في هذه الأيام . حياها محمود تحية ملؤها

الشكر ، وجلس واجماً ينكت الأرض بعصاه ، وهنا قال نيكلسون : مالى أراك اليوم متقبض الأسارير يا محمود ؟

— لخبر هائل وصل إلى من رشيد منذ أيام . ثم طفرت دمعتان من عينيه لم يستطع لهما حبساً ، وأخذ يصل الحديث ثم تتم فى ذهول : علمت أن الجنرال مينو تزوج بزبيدة . سمعت لورا الخبر فدارت بها الغرفة كأنها ركبت فوق محور ، وماجت بنفسها إحساسات عنيفة مبهمة . فأحست بشيء من الفرح يمتزج بالحزن الأليم . تزوجت زبيدة حبيبة محمود فأصبح خالصاً لها ، لا يزاحمها فى حبه شريك . والأثرة أول صفات الحب ، لأنه دائماً غيور حذر مستأثر . وإذا يشس محمود من زبيدة تفتحت أمامه السبيل إلى حب آخر ، وقد رأت منه فى الأشهر القليلة الماضية ميلاً كاد يكون حباً ، وحناناً جاوز حد الحنان ، تمر هذه الصور سريعة خاطفة بذهن لورا فتسر وتبهج . ولكن صوراً أخرى فى سرعتها ومضائها تدهمها قوية جياشة فتبتثس وتحزن . إن محموداً فى ألم شديد فكيف تسر وحبيبها يتألم ؟ إن بطلها قد خاب أمله ، وعبثت بعواطفه فتاة كانت تغذى حبه بوعود خلافة كاذبة . وإلا فلماذا لم تتزوجه ، وهو زينة الفتيان وفخر أبناء الزمان ؟ ولكن من يدري ؟ فقد تكون زبيدة المسكينة قد رُميت بهذه الداهية

على الرغم منها ، وقد يكون أهلها قد غلبوا على أمرهم فزوجوها بهذا الفرنسي مكرهين ، وهنا يجب أن تحزن لزبيدة أيضاً ، فهي صديقتها وأختها ، وقد كانت تحب محموداً حباً جماً ، فيالنكبة العاشقين ؛ وَيَا الْمَصِيْبَةَ الْحَبِيبِينَ ! لا لا . إنها لا تفرح لمصائب الآخرين ، فكيف بنكبات أصدقائها المخلصين ؟ هكذا كانت الأفكار تتزاحم على لورا . وهكذا كانت عواصف الوجدان تطوح بها من ناحية إلى أخرى . لذلك اتجهت إلى محمود وقالت : إنها لكارثة حقاً ، مسكين يا محمود ! ولكن الرجال لا يكون ، ومثلك من يحمل الأرزاء فخوراً باحتمالها . وقال نيكلسون وقد برّح به الهم : عجيب أن يصهر الفرنسيون من المصريين ، ونحن أجرهم في جنوبهم . ولكنني أعتقد أن زبيدة أرغمت على هذا الزواج إرغاماً ، هون عليك يا بنى فإن هذه المصيبة سيمحوها ما هو أشد منها ما دمنّا في هذا الزمن الأغبر . ارفع رأسك يا بنى وكن رجلاً . فقال محمود : نعم سأكون رجلاً ، وسأعمل بوصاتك ووصاة لورا ، وسأثور على الفرنسيين لوطنى وشرفى . هلم يا نيكلسون فقد علمت أن نابليون سيعود اليوم من الشام وقد أقاموا له الزينات وأعدوا الطبول والزمور ، واعتقادي أنه هزم شر هزيمة على الرغم من منشورات الديوان ، ومن تلك الرايات التى رفعوها على مآذن الأزهر ،

ومن كل ما يذيعه أبواق الفرنسيين . هلم معنا يا لورا فإن
النظر إليك ينسينا ما نحن فيه من هموم . فارتدت لورا
حبرتها وغطت وجهها بنقابها ، واتجه ثلاثهم إلى باب النصر
ينتظرون قدوم الفاتح العظيم ، حتى إذا وقفوا هناك مع
الجماهير المتراخمة مر عليهم جماعات من عطاء المدينة
يركبون البغال المطهمة ، فسألت لورا محموداً عنهم فقال :
— أما هذا يا لورا فهو الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس
الديوان الخصوصي وشيخ العلماء ، وهو رجل أذله حب
المال والجاه ، فتعلق بأذيال الفرنسيين لا يهمه أخربت
البلاد أم عمرت ، وهذا هو الشيخ محمد المهدي وهو داهية
واسع الحيلة ، يقتنص العصفور من بين براثن النسر ،
يتملق الفرنسيين ليجتلب رضاهم ، ويصانع المصريين
بالدفاع عنهم ، والسعي في تخفيف ويلاتهم . أما هذا
الشيخ الأسمر النحيل الجسد فهو رجل عظيم يا لورا ، إنه
الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ الكبير ، علمت أنه يدون
الحوادث كل ليلة قبل أن يذهب إلى فراشه ، وله حكم دقيق
عادل على الوقائع والأشخاص . وهذا الشيخ الضئيل هو
الشيخ خليل البكري نقيب الأشراف . أما الشيخ الوقور
الراكب إلى يمينه فهو السيد محمد السادات وهو رجل خطير
الشان ، يبغض الفرنسيين ويبغضونه ، وقد يرجى أن تكون

له يد في إنقاذ مصر ، وهذا الذي تريته منحنيًا على قربوس
 بغلته ، وقد وشيت جبته بالذهب ، هو المعلم جرجس
 الجوهري القبطي ، كبير المباشرين والكتبة ، وله في هذه
 الدولة نفوذ عظيم . وانظري يا لورا إلى هذا العتل الزنيم
 الراكب وراءه ، إنه برثلمى الرومى ، وهو نكبة مصر
 في لأوائها ، كان من أسافل جند الممالك فعيته الفرنسيون
 وكيلا لحاكم القاهرة فطغى أشد الطغيان ، وأصبح صورة
 بشعة للقسوة والنهب وسفك الدماء والتجسس على الناس .
 ودخل نابليون في عظمتة وجلاله من باب النصر يتبعه
 الجيش ، فاخترق شوارع الجمالية وبين القصرين والموسكى ،
 حتى وصل إلى ميدان الأزيكية بين قصف المدافع ودق
 الطبول .

ولما انفرد محمود بنيكلسون ولورا قال : أشهد أن نابليون
 هزم في هذه الموقعة وعاد مدحوراً ، رأيتم كيف كانت
 عيناه تنطبقان أحياناً لكيلا تؤله رؤية هذا الاحتفال الكاذب ؟
 رأيتم جيشه خلفه وهو يكاد يسقط من الإعياء ؟ إني أقسم
 أنه فقد نصف عدده . رأيتم هذا النفر الضئيل الذى يسميه
 أسرى ؟ هؤلاء يا لورا من باعة الصابون الفلسطينيين الذين
 يتجرون في مصر ، وفي ظنى أنه ظفر بهم وهم قادمون فزّين
 له عجبه أن يتخذهم أسرى . فقالت لورا : أعتقد أن المبالغة في

الاحتفاء به وحدها هي أوضح دليل على خذلانه. وقال نيكلسون: صدقت أيتها الفيلسوفة الصغيرة ، لكنى أقول إن عودته وحدها من سورية برهان نكته ، لأن نابليون كان يرجو بعد فتح عكا أن يزحف إلى دمشق وحلب ، وأن يصل منهما إلى الأناضول فيحتل إستانبول ويقوض أركان الدولة العثمانية ، ثم يمضى بجيشه نحو النمسا ويصل منها إلى باريس ظافراً منصوراً بعد أن امتلك الشرق والغرب ، فعودته بعد أن طاحت هذه الآمال خيبة ليس وراءها خيبة . على أننا سنسمع الخبر اليقين من ألبير غداً ، فقال محمود : ومن ألبير هذا ؟ — ضابط فرنسي ساخط على بقاء الفرنسيين بمصر . وكانوا بلغوا منزل نيكلسون فودعهم محمود وانصرف . قضى نيكلسون اليوم التالى فى رسم خريطة للقاهرة تبين شوارعها ودروبها وأشهر معالمها ، حتى إذا جاء وقت العصر غادر داره متجهاً نحو دكان محمود ، فرآه جالساً قلقاً ينتظره . فسارا معاً حتى بلغا الحانة ورأى نيكلسون ألبير جالساً فى إحدى زواياها ، وهو يذود اللباب عن وجهه ضجراً مغتاضاً ، فلما رآه ألبير صاح مبتهجاً : أدركنى يا صاحبي المغربى ! فإنه يظهر لى أن ذباب مصر ملتهب الوطنية ، وأنه حينما رأى أن المصريين لم يستطيعوا إخراجنا من مصر ، أراد أن يقوم بالأمر عنهم ، فابتسم نيكلسون وقال :

— إن الذباب يسقط على ما يحب لا على ما يكره .
 — إنه حب من النوع القاتل ، فقد نكب هذا الحب
 جنودنا بالرمد المصرى والزحار وأنواع لا تكاد تحصى من
 الحميات القاتلة .

— الشاعر العربى يقول : ولا بد دون الشهد من إبر النحل !
 والشهد هنا هو النيل ، فمن أراد أن يمتلكه ويتمتع بعذب
 مائه فليصبر على ما بشاطئيه من حشرات وأمراض . ثم التفت
 إلى محمود وقال : هذا ابن أخى ، فنظر إليه ألبير مبتسماً
 وقال : ولكنه يتزيا بزي المصريين .

— لأنه يريد مجاملتهم لتروج تجارته بينهم ، أوصلت
 إليك السجادات العجمية ؟

— أنت لم تمهلنى لشكرك ، وهذا الذباب قد علمنى
 سوء الأدب فلم أسارع منذ رأيتك إلى إظهار ما يملأ نفسى
 إعجاباً بك وبهديتك الغالية . حقاً إنها سجادات يزدهى
 بمثلها قصر الشاه بإيران .

— هذا شىء قليل يا صديقى . أشهدت الاحتفال بمقدم
 نابليون بالأمس ؟ لقد كان غاية فى العظمة وجلالة الملك .
 — نعم لقد كان احتفالاً فخماً ، ولم ندخر وسعاً فى
 أن يكون صورة لقوة فرنسا وضحامة سلطانها .

— ولكنى كنت أحب أن يصل نابليون إلى أبعد من عكا .

— فابتسم ألبير ابتسامة فاترة حزينة وقال : هذا ما كان
 يتمناه نابليون ويتمناه كل فرنسى معتقل فى أرض مصر ،
 فإنه بعد أن سد علينا طريق البحر بتدمير أسطولنا حاول
 قائدنا أن يسخر من العقبات وأن يشق لنا طريقاً برية
 تصلنا بفرنسا ، فوقف القدر فى وجهه فلم يجد إلا أن يعود
 أدراجه إلى مصر .

— إنها محاولة جريئة ، لن يقوم بها إلا نابليون العبقري .
 — ولكن الثمن كان غالياً جداً ، والنكبة فادحة جداً .
 ولحق نيكلسون غلام الحانة فأمره بإحضار كأس من الخمر ،
 وفنجانين من القهوة ثم قال : إنهم يقولون إن نابليون عاد
 منتصراً ، ولكن ألبير مط شفته السفلى فى غيظ وأسف ،
 وقال : إن للسياسة يا صديق لغة لا يفهمها الناس . وحضر
 الغلام فاحتسى ألبير كأسه دفعة واحدة ، وأمر له نيكلسون
 بأخرى . وهنا مال ألبير نحوه برأسه وقال هامساً : لقد
 أصبحت لى يا سوسى أخاً وحيياً ، ولقد رأيت فيك ميلاً
 للفرنسيين وحباً خالصاً لهم ، وليس من حرج أن أكشف
 لك خبيثة كل أمر . لقد اطلعت بالأمس على رسالة طويلة
 كان بعث بها الجنرال «رينيه» إلى دوجا منذ أسبوع
 يصف فيها هذه الحملة وصفاً دقيقاً فيقول : إنهم تغلبوا
 على الجيش العثمانى فى العريش واستولوا على يافا بعد حصار

شديد ومعركة عنيفة ، وإن الجنود ارتكبوا في يافا من القتل والنهب ما تقشعر له الأبدان ، وفي هذه المدينة انتشر بين الجنود وباء ماحق كاد يقضى عليهم جميعاً ، وفيها أمر نابليون بإعدام ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية دفعة واحدة بعد أن ألقوا السلاح ، وبعد أن تعهد لهم بعض ضباطه بسلامة أرواحهم إذا سلموا . ثم استأنف الجيش سيره فاحتل حيفا ، ثم اتجه نحو عكا وهي مدينة محصنة بها جيش قوى من العثمانيين يقوده أحمد باشا الجزار ، وهو قائد شديد المراس قاس ، خبير بشتون الحرب ، واشتعلت المعارك بينه وبين الجزار طاحنة شديدة الأوار . ولا طال الحصار وضعف جند نابليون وعظمت خسائره ، ارتد عنها بالبقية الباقية من جيشه ، وزاد في قوة عكا أن الأسطول الإنجليزي بقيادة سدنى اسمث كان يظاهر جيش الجزار ويحول دون وصول السفن الفرنسية بالدخائر إلى الشاطئ ، وقد أسر منها سبعة كانت قادمة من مصر تحمل مدافع الحصار وكثيراً من الذخيرة ، فضمها إلى أسطولها . وهكذا عاد نابليون إلى مصر حزيناً يائساً بعد أن فقد خيرة رجاله

— لقد أحزنتني يا ألبير ، إنها حقاً لكارثة جاثمة تشبه كارثة الأسطول الذي دمره نلسون ، ولكن نابليون رجل خلاق للفرص يتخذ دائماً من خذلانه ذريعة لفوزه وانتصاره

— إنه يحارب في غير ميدانه يا صديقي ، ويحاول اغتصاب بيت بعيد عنه ، وهو غافل عن بيته الذي كادت تلتهمه النيران ، ويضيع جهوده في صحراء قاحلة بينما يترك جنات أوربا يتواثب عليها الأعداء !

وطال المجلس فوقف نيكلسون ومحمود وودعا صاحبهما وانصرفا . وأجمل نيكلسون لمحمود ما حدثه به ألبير فاغتبط وقال : هذه ضربة قاصمة ستليها بحول الله ضربات . فقال نيكلسون : أغلب ظنى أن نابليون لن يستطيع البقاء في مصر طويلا بعد هذه النازلة ، وعلى المصريين أن يهتبلوا الفرصة ويشبوا على الأسد وهو يلحق جراحه .

مضت أيام والمصريون في ثورة نفسية عنيفة يكتمها الحذر بعد أن شاعت الأخبار بينهم بهزيمة نابليون بسورية وارتداده عن حصون عكا ، ثم ملأت الإشاعات جو القاهرة بتزول الجنود العثمانيين بأبي قير . وأحس نابليون بالخرج وأدرك ما في الموقف من خطر ، وبخاصة بعد أن علم أن أسطول سدنى اسمث يرافق العمارة العثمانية . فأرسل أوامره إلى قواده ووثب بجيشه على العثمانيين واشتد الصراع وطال أمده ، حتى انتهى بهزيمة الأتراك والاستيلاء على مدافعهم وذخائرهم . ما كاد محمود يتنفس الصعداء ويستبشر بقدوم العثمانيين حتى دهمه الخبر بهزيمتهم فلزم داره أياماً ، وحين برّحت

به آلام الوحدة ذهب إلى نيكلسون بداره يشكو إليه بثه وحزنه . ولكن نيكلسون لاقاه ضاحكاً مستبشراً وقال : قربت النهاية يا بني فلا تبتس . ثم أخرج من صندوق أمامه جريدة إنجليزية وقال : بودى لو كنت تستطيع قراءة هذه الجريدة يا محمود . قابلت بالأمس ألبير وبعد أن تحدثنا طويلاً ، وهممت بالانصراف أدخل يده في جيب معطفه وأعطاني هذه الجريدة وقال : اقرأ هذه يا صديقي تعلم أن كل ما تخيلته منذ أيام كان صحيحاً . فسألته من أين له بهذه الجريدة فقال :

— إن سدنى قائد الأسطول الإنجليزى — وهو من نوابغ الإنجليز وكبار عباقرتهم — اغتم فرصة ذهاب ضابطين بعث بهما إليه نابليون للتحديث في تبادل الأسرى ، فأحسن لقاءهما وزودهما ببعض الصحف الإنجليزية . وما كان يريد سدنى اسمث بهذه الهدية الغالية إلا أن يطلع نابليون على ما أصاب أوروبا من الاضطراب وما دهيت به جيوش الفرنسيين في إيطاليا من الهزائم . وأكبر ظنى أن نابليون لن يقيم طويلاً في مصر بعد أن وصلت إليه أنباء هذه الكوارث . ثم أخذ يقرأ على فقرات مما جاء بالجريدة فكان منها أن الفتن اشتدت بألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأن السخط وبوادر الثورة على حكومة فرنسا عام شامل ، وأن

إنجلترا لا تفتأ تشن غاراتها على أملاك فرنسا بالبحار ، وأنها
اجتذبت إليها روسيا وتركيا فصارحتا فرنسا بالعدوان . وهنا
قال محمود : إن خروج نابليون من مصر فرار من الميدان ،
واعتراف صريح بأن السيف والنار لا يستطيعان أن يملكا
القلوب أو ينهها من عزيمة أمة عزلاء أمضت إرادتها أن
تعيش عزيزة لا تلين قناتها لغاصب .
هذه الأخبار يجب أن يطلع عليها الشيخ السادات ،
فهم بنا إليه .

١٠

لقيت زبيدة من زوجها مينو أول الأمر شغفاً وهياماً
وطرقاً في الغزل وشكوى الصبابة لا عهد لها بها ، فكان
يجثو أمامها في ذلة واستعطاف كما يجثو الراهب في
شرابه ، ويتمتع في أذنها بأحاديث من الحب والوله تختلط
بإشارات وحركات ينتفض لها قلب كل فتاة . وقد أتقن
مينو هذا الفن بعد أن تدرّب عليه طويلاً في مجتمعات
باريس . وكان كثير من شبان أوروبا في هذا الحين يعدون
إغراء المحصنات بأساليب الختل والكذب فناً رفيعاً وثقافة
عالية . فالذى لا يغازل أبله . والذى لا يستنزل فضيلة

المرأة البتول من قمة قدسها إلى أسفل درك لا يعد رجلاً
كامل الذوق واسع العلم بالحياة . وإذا تنافس فرسان العصور
الوسطى في الشجاعة وإغاثة الملهوف والأخذ بيد الضعيف ،
فإن فرسان أوروبا في هذا العصر كانوا يتنافسون في نصب
الحبائل للغيث الفاتنات . ولقد سرى الداء إلى النساء فلم
يعد الطهر طهراً ، ولا العفاف عفافاً ، حتى إن المرأة كانت
تباهى بكثرة عشاقها .

وأجاد الشبان دروس الغزل ، وأعدوا لكل نوع من النساء
نوعاً خاصاً منه ، كأنهم باعة ثياب يبيعون لكل مستام
ثوباً على قده . وقد قطعوا الصلة بين اللسان والقلب ، وبين
الوجه والضمير ، فهم يتحدثون عن الحب وليس في قلبهم
منه إلا فتكات اللص وشهوات البهيم ، ويبكون في ضراعة
ووجد وضميرهم يسخر ويقهقه من غرور المرأة وقرب
وقوعها في الشرك .

ولكن مينو كان زوجاً ، عقد له على زبيدة بكتاب الله
وسنة رسوله ، فلماذا يعصف به الحب ويدله الغرام ،
ومحبوبته بين ذراعيه ، وهي له وحده لا يزاحمه في حبها مزاحم ؟
الآن النشوة الأولى بهرت الرجل ولعب بلبه ما رأى في زوجته
من سحر وفتنة ، أم لأن الرجولة فيه كانت عاتية طاغية
فلم يملك إلا أن يجد لما يجيش في نفسه متنفساً بالغزل وبث

الغرام ؟ أم لأن العادة جرفته فأخذ يكرر في بيت الحاكم
برشيد تلك الدروس التي حفظها وأجاد إلقاءها في حفلات فرنسا ؟
وكانت زبيدة بعد زفافها في بحر مائج مضطرب من
الآفكار والهواجس . أترضى بما قسمه لها القدر ، وتقنع
بهذا الزواج الذي سيجلسها على عرش مصر ، فتجزى
زوجها حباً بحب ؟ أم تسخط على صلة دفعها إليها أمل
كاذب مفرّر فتتكش بقدر ما يحسن بها الانكماش ،
ولا تعطى هذا الفرنسي إلا ما تسمح به الفتاة الملول ؟ لم
يكن في الجنرال مينو شيء يغري المرأة بالرجل قط : وجه
غليظ دميم القسمات ثقيل الملمح ، وجسم بدين إلى القماءة
أقرب ، وكرش بارزة كأنها الزق المنتفخ ، ثم هو وقد خطا
نحو الخمسين لم يبق فيه مأرب للنساء ولو كان في جمال
يوسف الصديق . فكرت زبيدة طويلاً وقدرت طويلاً ،
فجال بخاطرها محمود وما أنعم الله به عليه من كمال في الخلق
والخلق ، وجمال في النفس والجسم ، ورجولة ناضجة تهوى
إليها قلوب النساء ، وعقل راجح يلعب بألباب الرجال .
جال ذلك بخاطرها فتار حبها القديم ، وماجت عواطفها
الكامنة ، وتأججت بفؤادها نار من الوجد طالما أخذتها
بماء دموعها ، لأنها لن تصل بمحمود إلى ما تريد من ملك
مصر ، ولأن حبه لا يحقق لها تلك الأحلام الذهبية التي

منها بها رابحة العرافة وأين محمود وأين جهارته ، من ملك
سامق البنيان عزيز السلطان تعنو إليه الوجوه وتنحنى الرؤوس ؟
هكذا مضت أيام زبيدة ، وهي تفكر وتثير غبار الماضي ،
لا يمر بخاطرها ذكر محمود حتى تثور عليه حزينة متأللة ،
فإذا نسيت أو شغلها عنه شاغل حنت إليه وتشبثت بخياله
تبته وجداً متأججاً وحباً كميناً . ولكنها أبت في النهاية أن
تمنح قلبها رجلاً جر العار إليها وإلى أهلها . فقد فر أبوها
من المدينة يوم خطبتها ، وبنح الحزن نفس أمها أسفاً ،
وجانبتها عشيرتها فأصبحت أشبه بأسيرة في جيش الأعداء ،
وإن أحاطت بها صنوف النعيم . وفي ذات صباح أطلت
من نافذة قصرها فرأت الجنود والحراس وقد التفوا حول
امرأة في ملاء بالية ، وهي تصيح في وجوههم وتقذفهم
بأبلغ ما تضمنته معجمات العامة من شتائم ، فأطالت زبيدة
النظر فإذا هي رابحة العرافة ، فأرسلت في عجل إحدى
وصائفها لتأمر الجنود بإدخالها . دخلت رابحة على زبيدة
مربدة الوجه ، وبعد أن تهتت طويلاً ، قالت :
— أسعد الله صباح الملكة .

— الملكة ؟ هكذا مرة واحدة يا رابحة ؟ إن الفرنسيين
لم يدعوا في مصر ملكاً ولا ملكة ولا أميراً ولا أميرة .
— نعم ، ولكن كل هذا لن يحول دون أن تكوني ملكة ،

إن علمي لن يكذب أبداً ؛ اللهم إلا إذا محيت خطوط
كفك المنى .

— ولكن أين أنا الآن من هذا الملك الموهوم ؟ وهل زواجي
بهذا الفرنسي يقربني خطوة إليه .

— لا أدري ؛ لأنني أعرف الغايات ولا أعرف الوسائل ،
وكثيراً ما دهشت لأعاجيب القدر ، وكثيراً ما كتمت
ما أراه من لمحاته حتى لا يسخر الناس مني .

ثم غيرت مجرى الحديث وقالت : لقد زرت أمك منذ أيام
فسألتني ما رأيت من ذبولها وشدة حزنها لاختفاء أبيك .
أما أعجب العجب فابتهاج أخيك على الحمamy وازدهاؤه
بصهره الجديد ؛ لقد نسي المسكين كل معنى للرجولة بعد
أن أغدق الجنرال عليه وجعله رئيس التجار وموضع الشفاعات ،
وأجرى عليه النعم . فهو اليوم يركب جواده في كبر وتيه ،
وأمامه ثلة من الجنود الفرنسية توسع له الطريق . ولن تذهب
سفينة إلى القاهرة أو الإسكندرية إلا بإذن منه ، ولن
يصدر هذا الإذن إلا بمال يكاد يصل إلى قيمة ما تحمله
السفينة . وبينما هي في الحديث إذا صوت جهير تتردد صيحاته
في الأفق تبينتا فيه صوت الشيخ على سريط وهو يقول :
— « طأطأوا الرعوس ، للعروس ، وإن ذهب الإسلام ،
وعبث الذئب بالأغنام » .

فتجهمت زبيدة ووجعت رابحة ثم قامت وهي تقول :
سأطأطأ الرأس للملكة ، أما الإسلام فله رب يحميه .
وانفلتت كأنها الطائر المروع . وبعد خروجها دخل المترجم
إلياس فخر ليلقن زبيدة درساً في اللغة الفرنسية ، فكان
يلقي عليها جملاً بالفرنسية مع بيان معانيها بالعربية ويطلب
إليها تكرارها ، وكان لهذه الجمل سبيل واحدة ، فكلها
من أمثال : أحبك ، لقد ملأ حبك قلبي ، لقد ملكت
فؤادي ، إن غيابك يؤلني ، إلى غير ذلك من أمثال هذه
الترهات ، وكانت زبيدة تكرر هذه الجمل ذاهلة حزينة .
وبعد انتهاء الدرس أخذ المترجم كعادته يفيض في عظمة
الجنرال وشرف محتده وعلو منزلته ، ويصور لها ما ينتظرها
من المجد الشامخ والعز السامق ، وهي تهز رأسها بحركات
آلية لا أثر للحياة فيها ، وبعد قليل سمعت أصوات الأبواق ،
وعلا صياح الجند بالتحية لقدوم الجنرال مينو ، واصطف
الحراس واهتزت أرجاء المكان ، ودخل مينو القصر في
عظمته وجبروته ، فسارتوا إلى حجرة زبيدة فانحنى أمامها
يقبل يدها ، وحيا إلياس فخر بإيماءة من رأسه ، وقال :
كيف تلميذتك اليوم ؟ إنها أدهشتني بالأمس ، فقد
فهمت كل ما ألقيته في أذنها من الجمل اللطيفة . ثم
التفت إلى زبيدة قائلاً : ألم تكن لطيفة يا حبيبتي ؟ فأسبلت

عينها في ضجر يشبه الحفر ، وقالت بعد أن تهتت :
نعم لطيفة . ثم قامت تتعثر في أذيالها كما يمشي الحالم ،
وغادرت الغرفة .

وهنا دخل على الحمamy فحيا الجنرال كما تحيا الملوك ،
وانتهى ناحية قاصية في الغرفة حتى إذا أوما إليه مينو بالجلوس
جلس مطرق الرأس يجمع أطراف ثوبه في أدب وذلة ،
ويخفي قدميه تحت الكرسي مبالغة في الخضوع ، فلما
اطمأن به المجلس سأله مينو : هل سافرت السفن إلى
القاهرة ؟

— نعم يا سيدى سافر اليوم عشرون سفينة محملة بالأرز
الأبيض ، فيكون ما بعث به إلى القاهرة في هذا الشهر
سبعين سفينة ، منها ثلاثون محملة قمحاً .

— هل تألم التجار من إرسال هذا المقدار العظيم ؟

— إنهم دائماً يتألمون يا سيدى ، ولو ترك لهم الأمر ما

سمحوا بسفينة واحدة ، لأنهم يبيعون أردب القمح خفية

بسبعة عشر ريالاً ، في حين أنه يباع للجيش الفرنسى

بثلاثة ريالات . أما الأرز فكثيراً ما ضبطت السفن وهى

ذاهبة به إلى السوق ليباع هناك بسعر مرتفع .

— ولكنى أخشى ألا نكون قد تركنا لأهل البلد من الحبوب

ما يكفيهم .

— الواقع يا سيدى أنهم فى ضائقة ولكن غلة العام القابل ستكون وافرة .

وفى هذه اللحظة دخل إينال مملوك الجنرال الخاص وقال فى صوت خافت : حان وقت الجمعة يا سيدى الجنرال ، والجنود على استعداد لموكب الصلاة التى ستكون فى مسجد زغلول . فظهر على وجه مينو الامتعاض الذى يظهر على وجه مريض تقدم إليه جرعة لا تساغ ، وقام فى تناقل وهو يقول : الصلاة ، الصلاة ، دائماً الصلاة ، ثم خرج فإذا موكب حافل من فرسان الفرنسيين وجنود الممالك والترك ، وقد حمل كل فارس الراية الفرنسية خفاقة فى الهواء متخيلة فى الفضاء ، والموسيقى تعزف النشيد الوطنى الفرنسى . وكان مينو فى وسط الموكب فوق جواد كبيت يختال فى مشيته كأنما سرى إليه زهو صاحبه ، حتى إذا بلغ الركب المسجد دخل مينو حاسراً عن رأسه ، فتلقاه الإمام وفى يده عمامة خاصة به كانت تحفظ فى خزانة بالمسجد ، فلما وضعها على رأسه طافت حول شفثيه ابتسامة خفيفة مبهمة ، تذكر عندها باريس ، وتذكر ملاهيه فى مرسيليا وبوردو ، وعجب من الضرورة التى دفعته إلى دين لا يعرفه بعد أن طلقت فرنسا كل دين . تذكر كل هذا فتملكه زهو الملوك ، وطاف بنفسه أنه فوق طبقة البشر ، غير

أن صوتاً جهورياً في هذه اللحظة انطلق من المثلثة فصك
أذنيه صائحاً : الله أكبر ! الله أكبر ! فلم يلبث المسكين
أن نكس رأسه في استخفاء ، وعلم أنه لا شيء .

١١

انفردت زبيدة في حجرتها بعد أن تركت مينو ، وقد
ساءها كثيراً حديث العرافة وتكهناتها ، وهجم عليها هم
جاثم لا تستطيع له دفعا ، وهالها أن تصطدم آمالها بصخرة
من الحقائق لا ترحم حزيناً ولا تواسى بائساً . وبينما هي
تحلق في صور ماضيها الجميل وهي تمر بخيالها متتابعة ،
وتود أو تستطيع أن تطيل وقفة هذه الصور المرحية الضاحكة
قليلاً ، أو أن تحول دون ظهور أية صورة من ماضيها
القريب الذي كله هموم وأحزان ، إذا خادمها سرور
يدق الباب ويعلن قدوم سيده تقيسة . ولم يمض إلا قليل
حتى دخلت أم زبيدة وقد برح بها المرض حتى أصبحت
لا يكاد يعرفها من رآها ، فقد زادت غضون وجهها ،
وانطفأ بريق عينيها ، وانحنى ظهرها تحت ما يحمل من
أرزاء وأعباء . دخلت فقبلت وجنتي بنتها في شغف واحترق ،
ثم حاولت أن تكتم ما يبدو من جزعها بضحكة مصنوعة ،

أو نكتة بارعة فلم تستطع ، ولكنها قالت في النهاية :
 كيف حالك يا زبيدة ؟ فتهدت زبيدة طويلاً وقالت :
 — تسألين عن حالي يا أماء ؟ أوتريدين حقاً أن تعرفيها ؟
 إذا فاسمعي : لقد كنت يا أمى في سفينة بين أهل وأحباب ،
 حديثهم ابتسام ، ومناجاتهم غرام ، ينعمون فيها بنعيم الروح
 ولذة الجسد ، بين روح وريحان ، وضحك من القلوب
 لا من الأفواه ، وحب تعجز أن تعبر عنه الشفاه ، كأن
 الدنيا لم تخلق إلا لهم ، والسعادة لم ترف إلا عليهم ، ألغوا
 الزمن فلا ليل ولا نهار ، وألغوا الفكر فلا خوف ولا حذر ،
 وألغوا الغيرة فلا حقد ولا دخل ، وبينما كانت هذه السفينة
 الفردوسية تمخر العباب يا أماء مزدهية مختالة ، تجري فتداعبها
 اللجج ، وتجبر ذيلها فتقبله الأمواج ، إذا عاصفة عاتية
 هوجاء كالجنون ، مدمرة كالماوت ، ترفع البحر ثم تقذف
 به ، ثم ترفعه ثم تقذف به ، كأنه كرة في يد مارد جبار .
 فلم تلبث السفينة يا أماء أن ذهبت بدداً ، وتمزقت قطعاً ،
 وهالني الأمر ، وأخذ مني الطلع فنسيت التدبير ، ونسيت
 الرأي ، ونسيت الحيلة ، وتشبثت بقطعة من السفينة خائرة
 قذفتني بها الأمواج إلى جزيرة فيها أشجار وفيها أنهار ،
 ولكن ثمر أشجارها زقوم ، وماء أنهارها سموم ، وهى قفر
 من بنى الإنسان إلا مخلوقاً غريب السمة جاء يتودد إلى ويتخلدنى

له زوجاً . أما أهلى ، وأما أحبائى ، فقد تفرقوا أبداً سباً ،
وبقيت وحدى فى هذه الجزيرة الملعونة مع هذا المخلوق الغريب .
هذه حالى يا أمى . وكيف حالك أنت ؟

— أنا كنت من ركاب هذه السفينة ، وقذفت إلى جزيرة
أخرى ليس فيها أحد من بنى الإنسان ، ولكنها مملأى بوحوش
من هموم وآلام ، أما أبوك فرماه الموح إلى جزيرة نائية
لا نعرف إليها طريقاً .

— وابن خالتى محمود فى جزيرة رابعة ! آه يا أماه !
هل يلتقى هذا الجمع الشتيت ؟ وهل تعود تلك الأيام التى
كانت حلماً هنيئاً ؟

— تعود عند ما تهدأ العاصفة ، ويسكن البحر المائج ،
وتجرى السفن مرة أخرى . لهنى على محمود ! لقد وضع
بين يديك حباً لو فرق على الناس جميعاً ما ترك فى صدر
غلاً ولا حفيظة ، فنبذته فى قسوة وعزوف ، فلم يئأس
بل ثنى يده على قلبه صابراً وفيماً وقلبه يقطر دماً ، وراح
يناجى الطير لما صرفت عنه أذنك ، ويضاحك الآمال
لما أقصاه عنك العيوس . وقد كنت عنده— رضيت أم غضبت ،
وصلت أم هجرت — القدس الطاهر الذى لا يطلب على
حبه ثواباً .

— كنى يا أمى إنك لا تعرفين . قاتل الله رابحة العرافة ،

وقاتل الله الطموح الكاذب ، وقاتل الله الخيال الخصب
الذى جعلنى أبيع عزًا حاضراً ، وحبًا طاهراً ، بأمل عقيم
وأمنية حمقاء . فقدت ما فى يدى لأقبض على برق نخل
يلمع فى أجواز الفضاء !

— أكنت تحين محموداً حقاً ؟

— كنت أحبه ؟ كنت ولا أزال ولن أزال ، وسأموت
شهيدة حبه ، وسأردد للملكين عند سؤال القبر أنى أحبه .
— ولماذا رضيت بهذا الفرنسى ؟

— لأن القدر هو الذى رضى به لى . على أنى أظن
أنى ساعدت القدر بجنونى وتسوينى وتمسكى بخرافة بعث
بها روحى وجسمى للشيطان . بالله دعى الحديث فى هذا
يا أمى ، فإننى أتخيل دائماً أن شبابى ميت مسجى ، وأننى
بجانبه أنثر عليه الدموع .

— ولكن هذا يقتلك يا بنيتى ، فاطوى الماضى ، وأصلحي
من شأنك بالطمأنينة لحكم الله . إن حسن الأشياء وقبحها
أمران خياليان : فالنفس الجميلة الراضية ترى كل شيء
جميلاً ، والنفس الساخطة الصاخبة ترى كل شيء قبيحاً .
انظرى إلى ما أنت فيه من عز وجاه ، وإلى هذا القصر
الفخم والرياش الفاخر ، ثم إلى هؤلاء الخدم والعبيد وقولى
إنى سعيدة ، وأقنعى نفسك بأنك سعيدة تكونى سعيدة حقاً .

— هيهات يا أماء ! هذا كلام لطيف براق . إن من
 الجائز أن يقنع الإنسان غيره بما يحس أنه حق ، أما أن
 يقنع المرء نفسه بعكس ما يحسه فهو محال . إن محموداً
 خلق ليكون لى زوجاً ، وخلقت لأكون له زوجة ، ولكن
 القدر الساخر أراد أن يتحكم في طبائع الأشياء ، وأن يعبث
 بالفرائز والميول ، فاستهوى غرائزي وخدع ميولي ، فأغلقت
 باب سعادتي بيدي ، وسنتت السكين لقطع كل صلة
 بيني وبين السعادة والحب والحياة . ويحي عليك يا محمود !
 إنك تظني امرأة غادرة فاجرة ، ولك الحق في أن تظن
 ما تشاء . أفنيت كل أساليب الاستعطاف والغزل والتدلل
 والاستجداء أمام قلب صخري كان عنك ذاهلاً تغويه
 الأحلام ، وتصده دونك الأوهام . لم لا أطيّر إليه في القاهرة
 وأحطم هذه القيود الظالمة التي يسمونها قيود الزوجية ؟ وهل
 كانت الصلة بيني وبين هذا الفرنسي شرعية ؟ وهل ينعقد
 زواج فتاة فر أبوها فاقتنصتها طائفة من أصحاب المنافع
 من أهلها فكتبوا ما كتبوا وسجلوا ما سجلوا ؟ وهل يعد قبول
 فتاة في هديان حمى الأوهام ، وحنون الطموح المأفون قبولاً ؟
 لا يا أماء . إن الناس جميعاً يعدونني خليلة لهذا الفرنسي .
 وإن ائثار طائفة من العاثم بفتاة مسكينة ، وتدوين عقد
 زواج في محكمة ، لا يغير من وجه المسألة شيئاً . إن الشرع

الشريف كما أخبرني الشيخ صديق يوجب الكفاءة بين الزوجين . وأول ما أفهمه من معنى الكفاءة إنما هو تماثل الأخلاق واتساع الطباع . وأين ذلك التماثل بين فتاة مصرية في رشيد وشيخ فرنسي من باريس ؟ وقد كان محمود العسال يقول لي إن زوج الرجل يجب أن تكون قطعة منه ، ويكرر الآية الكريمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . فالقرآن ينص على أن الزوجة من نفس الرجل ، ويجعل ذلك سبباً للسكون إليها والسعادة في كنفها ، وتبادل المودة والرحمة والحنان بين الزوجين . وأعتقد أن هذه الآية صورت في إيجاز ما يريده الفقهاء من معنى الكفاءة الزوجية ، لأن المرأة إذا كانت من نفس الرجل وجب أن يتماثلا في الحب والعادات والأفكار والميول . وأين أنا من هذا الفرنسي ؟ شرق وغرب بينهما آميال وأميال ، وتباين كامل في كل شيء ، فهل بعد هذا أخضع لهذا الزواج ؟ وهل بعد هذا أرضى بهذا السجن الموحش ولا أفر إلى محمود ؟

— بالله عليك يا زبيدة لا تضيئي إلى حزننا حزناً جديداً ،

فقد طفح الكيل ، وبلغ السيل الزبي .

— إن الفرار من العار ليس بعار .

— ولكن فرار الزوجة من بيت زوجها إلى بيت رجل

آخر عار أى عار . ثم من هو زوجك ؟ هو رجل نافذ الأمر قوى السلطان شديد البطش ، فلو فررت منه فى أنفاق الأرض ، أو أبراج السماء لامتدت إليك يده ، ولنكل بك وبنا وبابن خالتك محمود . على أن فرارك سيثير الفضيحة من جديد ، وينبه العقول إلى أمر أوشكت أن تنساه ، ويجرى الأيدى القاسية على العبت يجرح أخذ يندمل .

— ليس لشيء من هذا يا أمى أخشى الفرار ، فما أبالى الناس ولا آبه لحديثهم إذا ظفرت بمحمود ، ولكنى أخشى الفرار لشيء واحد كلما مر بخاطرى وددت أن الأرض ابتلعنى ، أو أن السماء أقلتنى . ويلاه يا أمى ! إني أخشى ألا يمر بنا هذا الحادث دون أن يضع وصيته .

— ماذا تقصدين يا زيدة ؟

— أقصد أن المرأة إذا عاشت مع رجل شهوراً ففى أغلب الظن أن ينشأ بينهما ثالث .

— وهل شعرت بما تشعر به الحامل ؟

— لا ، ولكن من يدرينى ؟

— صانك الله يا ابنتى من كل سوء، وكشف عنك كل ضرر .

— ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله ، فإن فى الالتجاء إلى

رحمته راحة للمحزونين . أسمعت شيئاً عن أبى ؟

— لا يا زبيدة ، وقد كتبت إلى أختي أمينة . وإلى محمود
فكان جوابهما أنهما لم يعثرا له على أثر بالقاهرة بعد طول
البحث ، وأخشى أن يكون . . .

— لا تقوليها يا أمي ! فيكفي ما نحن فيه من مصائب
وأحزان . وهنا دخل سرور في أدب وتردد ، وجثا على
قدمي نفيسة باكياً وهو يقول : يا سيدتي لا تحرمي سيدتي
الصغيرة من زيارتك فلاني أراها دائماً حزينة كاسفه البال ،
فبتقطع قلبي ، ويشتد ألمي ، لأنها ابنتي ، ربيتها على كفي ،
وكنت أطعمها فأشبع ، وأسقيها فأروى . إنها تغلق عليها
باب الغرفة طيلة النهار لتنفرد بأحزانها وبكائها . وماذا يجدي
البكاء ؟ وهل ينفع حذر من قدر ؟ إنها ليست بنتي زبيدة
التي أعرفها من حين أن كانت في مهدها . أين ضحكاتها
المجلجلات ، وبسماتها الساحرات ، وأحاديثها الفاتنات ؟ لا تغيب
عنها ياسيدتي !

فقاطعت نفيسة وقد وضعت يدها على كتفه في حنان ،
وقالت :

— لن أغيب عنها ياسرور ، لأنني لم يبق لي من الدنيا
إلا زبيدة وأنت ، فأحرسها لي يا سرور ، واسهر عليها وصنها
بروحك ودمك . إن أول شيء اشتراطته عند زواجها أن
تكون معها ، فهي وديعتي عند الله وعندك ، وهذا هو الذي

يهدئ نفسى ، ويخفف من شجونى . ثم أسرعت فقبلت
 زبيدة ، وحيث سروراً ، وخرجت وهى تخفى تحت نقابها
 سيلاً من الدموع .

١٢

نعود بالقارئ إلى القاهرة بعد أن قضينا معه وقتاً طويلاً
 فى رشيد لنرى أن الخطوب فيها مازالت تتلاحق وتتعاقب ،
 وسحائب الكوارث ما فتئت تتجمع وتتراكم . فقد غادر نابليون
 القاهرة على حين غفلة من جيشه ومن أهلها ، فى الثامن
 عشر من أغسطس سنة ١٧٩٩ بعد أن رأى آماله ركاماً ،
 وأطماعه أحلاماً ، وبعد أن سمع بأذنبه ضحك القدر ،
 وأحس بسخرية الأيام . فانطلق به النيل إلى أحد شاطئيه
 بالقرب من الإسكندرية حزيناً مهموماً ، يرى فى كل موضع
 قدم قبراً ، وفى كل لجة من بلج البحر شركاً . انطلق به
 النيل وطفق يجرى ويمور كما كان يجرى ويمور منذ القدم ،
 وأخذت أمواجه تقهقه من طموح الإنسان ، وتحديه
 أحكام الزمان . نابليون يعود أدراجه إلى بلاده مخاطراً بنفسه ،
 بعد أن انقطعت به إليها السبل ، وربضت له بوراج الإنجليز
 فى البحر تنتظره ، كما ينتظر الأسد الطاوى فريسته ! جاء

إلى مصر فلم يظفر بشيء ، وأضاع كل شيء ، فكم وعد
وكم صانع ، وكم تنمر وهدد ، فلم تفتح له مصر قلبها ،
ولم تلق أمام قوته سلاح ضعفها . قامت الثورات في كل
مكان فعجز بطل إيطاليا وقاهر النمسا ، والفارس المعلم
في فرنسا ، أن يخمد نارها أو يطفىء أوارها . ولم تغن عنه
عدده وآلاته الحديثة شيئاً أمام عصي المصريين المخلصين ،
الذين قذفوا بأنفسهم للموت في سبيل وطنهم . ثم ذهب إلى
الشام فلقنه الجزار درساً أطار من نفسه ذلك الزعم ، الذي
سول له أنه رجل الدنيا وواحد . نظر — وهو يغادر مصر —
إلى جنوده المغاوير ، فإذا هم حفنة من المهازيل الساخطين ،
أكلت الحروب والثورات والطواعين خيرة رجالهم ، وحصدت
نخبة أبطالهم . ثم التفت فرأى الجوع والفقر والسخط في
ظل سياسته ، يمزق أوصال مصر ويهدد كيائها ، وأن
قوانينه وفلسفته لم تجعل مصر سعيدة ، وأن ما جمعه من الضرائب
والمكوس لم يكف لنفقة جنده وأن إيراد مصر أيام المماليك
الجهلة الأغبياء كان أربعة أمثال إيرادها في عهده المتألى
الزاهر ! فكر في فرنسا وفيمن فيها ، فإذا هم أعداء ألداء
قذفوا به في أتون مصر ، ليستريحوا من توثبه وطموحه ،
وإذا زوجه « جوزفين » التي ألقى بحبه تحت قدميها ،
تدوس ذلك الحب وتنسى ذكره ، كأنها أضغاث حلالم .

ذكر كل هذا وهو واقف إلى جانب قصر القياصرة ،
على شاطئ البحر بالإسكندرية ، فبكى ملء عينيه ، وأن
أنين البائسين .

سافر نابليون إلى فرنسا بعد أن جعل الجنرال كليبر
خلفاً له بها . وكان كليبر شديد الاعتداد بنفسه ، مولعاً
بمظاهر الملك . وقد فدح المصريين في أول عهده بفنون
من الضرائب اعتصرتهم اعتصاراً ، فزاد سخط الناس ،
وتأججت الصدور بالغيظ ، وكثرت الاجتماعات السرية
والمؤامرات . وكان محمود العسال في ذلك الحين لا يزال
بالقاهرة ، وكان يكثر من زيارة لورا ونيكلسون . وقد آن
لنا أن ندون هنا أن هذه الزيارات المتكررة ، إلى قنوطه
من التزوج بزبيدة ، إلى ما كان يحسه من عطف لورا
ورقتها وقوة جاذبيتها ، جعلته يحن إلى بيت نيكلسون ويشعر
عند مشاهدة لورا والجلوس إليها بلذة روحانية عجيبة ،
أبى عليه كبره أن يعلنها ، لأنه كان يريد أن يقبر حب
زبيدة في قلبه ، وأن يعتز به ويتسلى بذكرياته ، وإن كان
حباً يائساً عقياً . وحينما رأى نيكلسون تكرار هذه الزيارات ،
وقرأ في وجه ابنته ابتهاجها بها ، عرض عليه أن يساكنهما
في هذا الزمن المضطرب بالخاوف والأحداث . فقبل
محمود شاكرًا ، وانتقل من بيت ابن عمه حسين إلى بيت

لورا بالكحكيين . وكان يخرج مع نيكلسون لزيارة المتأمرين على الفرنسيين ، أمثال الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم ، والسيد المحروقي ، وغيرهم . وكانا يسقطان بين الحين والحين على الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، ليلتقطا منه أخبار القاهرة والأقاليم . فغشيا داره بالصناديق ذات ليلة ، فوجداه منحنيًا على بعض الأوراق وقد وضعها على فخذه ، وأخذ يكتب فيها مادون في صحف انتشرت حوله . فلما دخلا ذعر الشيخ أول الأمر ، وانكب على الصحف يجمعها ويخبئها تحت سجادته ، ولكنه حين عرفهما أخذ يقهقه ويقول : لاتؤخذاني يا سيدى ، فإننا أصبحنا في زمان نخاف فيه من خيالنا في المرأة . أسعد الله مسامك يا سيدى محموداً . ثم اتجه إلى نيكلسون وقال : كيف حال الحاج السوسى ؟ هل من أخبار ؟ - الأخبار عندك أنت يا مولانا .

- عندى أخبار سارة ، ويا حبذا لو صحت الأحلام ؟ فأسرع محمود سائلا في لهفة واضطراب : وما هى يا مولانا الشيخ ؟

- علمت اليوم فقط من المعلم نقولا الترك المترجم ، أن كليبر فى أول ولايته كتب إلى الصدر الأعظم للدولة العثمانية رسالة مطولة يطلب فيها الصلح بين الدولتين . وأن تعقد معاهدة لخروج الفرنسيين من مصر .

فقال نيكلسون : هذا ما ظننته ، فإن موقعة أبي قر الأولى التى حطمت سفنهم ، لم تترك فى نفوسهم خيالاً من أمل فى البقاء بمصر . ثم قال الشيخ الجبرتي :

— وبلغنى أن الأتراك بعد أن قابلوا هذا الطلب بالازدراء ، أرسلوا بسفنهم وجنودهم — كما تعلمون — إلى دمياط ، فهزمهم الفرنسيون شر هزيمة . فقال محمود : نعم ياسيدى إن كارثتنا بأصدقائنا أنكى من كارثتنا بالفرنسيين . فاستمر الشيخ وقال : — ولكن الفرنسيين — على الرغم من انتصارهم — ألحوا فى طلب الصلح من العثمانيين . وقد علمت أن معاهدة وضعت شروطها باتفاق الفرنسيين والترك ، والإنجليز والروس . وأن خير ما فى شروطها أن يخرج الفرنسيون من مصر ، وأن يؤمن سفر الجيش الفرنسى الذى يبحر من مصر بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا . فقال محمود :

— يا فرج الله ! وقال نيكلسون وهو يهز رأسه هزة نفي واستنكار :

— يخرج الجيش الفرنسى آمناً بعدده وآلاته ، ليشعل نار الحرب من جديد على إنجلترا . ما أظن لإنجلترا ترضى بهذا . فقال الشيخ الجبرتي :

— إن « سدى اسمث » أمضى هذه الشروط .

— ما أظن . وهنا قال محمود لنيكلسون : يا سيدى إذا

أرادت إنجلترا أن تمزق جيش فرنسا فلتخرجه من مصر
أولا ، ثم تمزقه في أى مكان آخر !

— أتمنى يا محمود أن يحقق الله ما تريد ، فقد نزل بمصر
من الولايات ما يدك الجبال ، وإذا لم توافق إنجلترا على هذه
المعاهدة ، فستكون الكارثة أفدح والبلاء أعظم ، ولكنى
أعرف سياسة إنجلترا ، وقليل ما تكذبني ظنوني .

وصدقت الأيام ظنون نيكلسون ، وأبت إنجلترا أن توافق
على المعاهدة فنقضها الفرنسيون وبرز « كليبر » بجيشه لمحاربة
العثمانيين عندما بلغت جيوشهم « عين شمس » .

عندئذ اجتمع عدد عظيم من المتأمرين بدار السيد عمر
مكرم ، وكان بين الجمع الشيخ السادات ، والسيد أحمد
المحروقي ، والشيخ الجوهري ، ونيكلسون ومحمود العسال .
وبعد أن طال الاجتماع وزاد اللفظ والجدال ، دخل الحاج
مصطفى البشتيلي زعيم الثوار ببولاق فقال : إن العثمانيين
دخلوا القاهرة وانتصروا على الفرنسيين في موقعة عين شمس .
فصاح محمود العسال .

يجب أن نقضى على الحامية الفرنسية الباقية بالقاهرة ،
وآلا نبقى على أحد منهم ، فصمم الجميع على الجهاد ،
وأرسلوا المنادين يدعون الناس إلى إقامة المتارس وحفر الخنادق ،
وبعثوا البعث في شمال مصر وجنوبها لبث روح المقاومة

والعصيان في كل مكان . وزاد في حماسة المصريين دخول
 ناصف باشا قائد جيش العثمانيين إلى القاهرة ، وحوله عدد
 من كبار قواد المماليك . وكان من أشد الناس نهوضاً بالأمر
 وتعصباً له ، أعرابي ملثم ، أخذ يعدو بجواده بين أحياء
 القاهرة محرضاً مشجعاً داعياً إلى الموت في سبيل الله والوطن .
 ذهب نيكلسون ومحمود إلى دارهما بعد أن انفض الاجتماع ،
 وقد هالهما ما رأيا وسمعا ، وتوجسا خيفة من عواقب الأمر ،
 وخشياً أن تبوخ الثورة كما باخ غيرها ، وتعود مصر إلى
 الأسر المهين .

قابلتهما لورا مذكورة وقالت : ما هذا يا محمود ؟ إنى
 رأيت من النافذة رجال الحى جميعاً يتسلحون للقتال ، وشهدت
 فارساً أعرابياً يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثهم على قتال الفرنسيين !!
 — هذه الثورة يا لورا ، وهى آخر سهم في الكنانة ،
 فإذا أخذت فقدنا كل شيء .

— لن نخمد ، وليست هى آخر سهم في الكنانة ،
 إن الشجاع دائماً يخلق من اليأس أملاً ، لأن اليأس فيه
 معنى الموت ، ولأن في الشجاعة معنى الحياة . ادخلا
 وأخبراني بكل شيء ، فقال نيكلسون .

— إن الأمة أجمعت على الجهاد يا فتاتى ، وإن الفرصة
 مواتية ، فلم يبق من جنود الفرنسيين عدد يؤبه له ، أو يستطيع

الصمود أمام الكثرة والتضحية .

— هذا صحيح يا أبى . ثم عادت إليها غريزتها النسوية ، وما تشعر به المرأة من الخوف والإشفاق على من تحب ، فقالت : وهل تحارب يا محمود ؟

— سأكون فى أول الصفوف ، وإذا بترت يمينى انتقل السيف إلى شمالى . لئننى يا لورا كلما فكرت فى أنك من أمة عزيزة مهيبة الجانب لا يداس لها عرين ، ولحت ما فىك من الاعتزاز بقومك الدين لا يحوم بخيال غاصب أن يقترب من شواطئهم ، أدركنى ما يشبه الحسد ، ووددت أن أفخر ببلادى وقوى كما تفخرين .

— ستفخر يا محمود ببلادك ، وهى خالصة لأمتك لا يتحكم فيها غاصب ، وإذا لم يتنفس لك العمر ، فسيفخر التاريخ بك وبأمثالك المجاهدين . وأنت يا أبى ماذا سيكون شأنك ؟ — سأكون بجانب محمود ، وسأجاهد فى سبيل مصر جهاداً يحسدنى عليه أبناؤها .

ثم قامت لتعد الطعام ، وهى فى خوف ووجل وإشفاق ، وتمنت لو ظفرت بمحمود وبجب محمود فى بلد هادئ أمين ! وصورت لها الهواجس صوراً مخيفة ملأت نفسها رعباً . إن محموداً مقدام مخاطر ، وهو إذا حمى وطيس الحرب أدركه جنونها فقلد بنفسه للموت ممحاً كريماً . ولكن

هذا الخلق هو الذى تحبه فيه ، وهو الذى تعشقه من أجله ،
فكيف تلوده عما تحب ؟ ولو أنه أطاعها لعاد فى عينها
فسلا مسلوب الرجولة هزيلا .

وأشرق شمس اليوم الحادى والعشرين من مارس سنة
١٨٠٠ على مصر كلها أشام بشروق وأنحسه ، وكان
حمرتها عند البزوغ دماء الشهداء الذين كتب عليهم أن
تحصد لهم المدافع وتنوشهم السيوف البواتر ، وكان أشعتها
وهى تضطرب فى الأفق ، أسباب المنية امتدت فجمعت
أبناء مصر المساكين فى شباكها .

خرج نيكلسون ومحمود فى هذا الصباح ، وودعتهما
لورا والهة حزينة ، تظهر الجلد بقدر ما تستطيع ، فإذا
غلبها الدمع قهقهت لترغم أن دموع الحزن من دمعات
السرور . خرجا فوجدا القاهرة فى هرج وحركة دائبة ،
واستعداد للوثوب واستخفاف بالموت ، وخلت البيوت من
من قطانها ، واختلط الحابل بالنابل ، وتسليح كل من يستطيع
بما يستطيع ، فمنهم من كان يحمل سيفاً ، ومنهم من كان
يحمل بندقية ، ومنهم من كان يلوح بعصا غليظة فى الفضاء
ومنهم من تسليح بسكين ماضية . أما الأطفال والنساء :
فلثوا حجورهم بالأحجار وساروا خلف الشجعان المجاهدين ،
يتنغمون بأناشيد نظمها الفطرة الساذجة ، فأذكت من نار

الحماسة ما تعجز عنه بدائع الأشعار . وقد قسموا أنفسهم
فرقاً ، وأقاموا المتاريس في جميع أحياء القاهرة وبولاق ،
ووثب بعض الثوار وفي مقدمتهم نيكلسون ومحمود على معسكر
الفرنسيين في ميدان الأزبكية كما تثب أمواج البحر الخضم
على الشاطئ لتتكسر ثم تعود . وكان الفرنسيون
— وقد امتلكوا القلاع والتلال حول المدينة — يصبون
عليها وابلاً لا ينقطع من النيران والقذائف ، يدك
أرجاءها دكا ، وينشر الذعر والموت في كل مكان .
وشمر الترك والمماليك عن سواعدهم وصالوا في المدينة وجالوا ،
وأخذوا يرسلون النجدات . ويقولون العزائم . وبينما
كان نيكلسون ومحمود عائدين إلى دارهما في أصيل ذلك
اليوم ، إذ لمح محمود الأعرابي الملمم ، وهو يخوض بفرسه
في جحيم المعامع فالتفت إليه محمود — وكانت حماسته قد
حسرت من لثامه — فإذا هو زوج خالته السيد محمد البواب !
فتملكه الدهش ووثب حتى أخذ بعنان فرسه وصاح : خالي !
أنت هنا ؟ أنت بالقاهرة ؟ إني لم أدع ركناً في المدينة إلا بحثت عنك
فيه . ثم حبسه البكاء عن الكلام ، فوثب السيد البواب
إليه وعانقه ، وارتفع البكاء والنشيج . ولغة الوجدان دائماً
أفصح من لغة اللسان . حتى إذا هدأت نفسيهما قليلاً ،
قال محمود في صوت خافت حزين :

— لم تسطع البقاء في رشيد يا خالي ؟
 — إن حياة الكريم ليست نفساً يذهب ويحيى ، وليست طعاماً وشراباً ، وإنما هي شرف وكرامة ، فإذا امتن الشرف وضاعت الكرامة كان الكريم بين إحدى خلتين : إما أن يموت ؛ وإما أن ينتقم . وقد جئت إلى القاهرة لأنتقم ، ولأغسل غيظي بدماء أعدائي .
 — ذلك ما أفعله أنا الآن ، وهذا ما سأموت في سبيله .

وكيف جئت يا خالي ؟

— غادرت رشيد ومعى مقدار من المال ، فسافرت إلى بادية البحيرة . وكان لي بين عرب « الهنادى » صديق قديم ، فتزلت بنخامه وأخبرته بفاجعتي ، فأظهر لي من حسن المواساة وكرم الضيافة ما هو خليق بالعربي الكريم ، ثم غيرت زبي عنده ، ورحلت مع ثلاثة من أتباعه ، حتى وصلنا إلى القاهرة فتزلت بنحان جعفر بنخطة سيدنا الحسين ، وعزمت على إخفاء أمرى والجهاد في سبيل الله ، حتى ألقى الله .

— لا يا خالي ، لا بد أن تتزل عندنا . ثم أشار إلى نيكلسون وقال : هذا صديق وأخى في الجهاد الحاج محمد السوسى . انظر إليه فهل تعرفه ؟ فحلق فيه السيد البواب طويلاً وقال مردداً : أعرفه ... ؟ أعرفه . . ؟ وكيف لا أعرفه ؟ إنه الحاجة نيكلسون تاجر الصوف والحرير برشيد ، ثم

طوقه بذراعيه في شوق وحب صادقين وهو يردد : كيف حالك يا خواجه نيكلسون ؟ أو إن شئت : كيف حال الحاج محمد السومى ؟ ما كدت أعرفك لولا أن نبهني محمود ، لقد تغيرت كثيراً يا نيكلسون في زمان تغير فيه كل شيء .

ثم الح عليه محمود أن يتزل معه بدار نيكلسون فقال : دعني يا بني فلاني أستاذس بوحشتي ، وأرتاح إلى وحدتي ، ثم أنساب كما ينساب السهم فلم يريا إلا غبار جواده . وعاد نيكلسون ومحمود إلى دارهما ، فأخبرا لورا بحوادث اليوم . وكان نيكلسون حزينا شديداً التطير ، وأخبرها محمود بما كان من لقاء زوج خالته ، وبما كان يظهر عليه من الحزن وحب الانتقام ، فعجبت لورا وقالت : السيد محمد البواب أصبح فارساً مغواراً ؟ ! هكذا تخلق الحوادث الرجال ! ! وهنا قال نيكلسون لمحمود : رأيت اليوم كيف يخذع الممالك الشعب المصرى الأعزل المسكين ؟

— كيف ؟ !

— زعموا أولاً أن الجيش الفرنسى انهزم بعين شمس ، وكان كل ذلك كذباً وزوراً ، ثم إن نصوحاً باشا كان يخذع الناس اليوم ، حينما أرسل المتأدين في أرجاء البلد يصيحون بأن يوسف باشا الصدر الأعظم للدولة العثمانية ، سيصل

غداً أو بعد غد بجيشه اللامع ، ليستأصل شأفة الفرنسيين .
والصدر الأعظم — كما أعلم علم اليقين — فر بجيشه إلى
الصلحية ولن يعود .

— تبتاً لهم من قتلة سفاكين ! ! والآن وقد لعق الشعب
لحامه ، وأطارت الثورة عقله ، وأصبح من العسير أن يكبح ،
ماذا ترى يا نيكلسون ؟

— أرى أن العاقبة غير واضحة ، وأنه يجب علينا ألا
نجنبن أو نعتزل القتال ، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .
وهكذا توالى الأيام والثورة مشتعلة الأوار ، وفي كل
يوم يضعف المجاهدون ، ويقوى الفرنسيون ، واستمرت
المدافع تصب حميمها على المنازل ليلاً ونهاراً ، فهجر الناس
بيوتهم ، وتهدم أكثر من نصف المدينة ، وبذل المصريون
جهد الياثسين : فأنشئوا معملاً للبارود في بيت قائد أغا
بالخرنقش ، ومصنعاً لإصلاح الأسلحة وصب المدافع ،
وجمعوا كل ما استطاعوا الحصول عليه من حديد ونحاس
وخشب ، ولكن كل ذلك لم يغن فتيلاً أمام قوة الفرنسيين
الجبارة ، ومما زاد الحال سوءاً حصار المدينة وامتناع وصول
الأقوات إليها ، فجاع الناس ، وانتشرت الأمراض ،
وخرجت النساء مولولات صاخبات باكيات ، يصورن
الهزيمة والذعر ، والمسغبة وضبعة الأمل .

وبينما كان الفرنسيون في اليوم الثاني عشر من إبريل يحاولون احتلال كوم أبي الريش بالفجالة ، بقيادة الجنرال روبان ، إذ رأى محمود العسال زوج خالته فوق جواده وهو يصول بين الفرنسيين غير هباب ، ورصاص بنادقهم يبنى فوقه ظلة من الموت ، فدعر محمود وتقدم لإنقاذه ، ولكنه قبل أن يصل إليه رآه يترنح فوق فرسه ، وقد أصابته رصاصة في العنق ، فأسرع إليه فاخطفه من سرجه ، وحمله فوق كتفيه . وما كاد يسير قليلا حتى أصابته رصاصة في فخذه ، فسقط على الأرض بحمله . وفي هذه اللحظة وثب نيكلسون فجر الرجلين إلى مكان أمين . وكان محمود شديد الألم من جرحه ، أما السيد محمد البواب فكان يحدو بأنفاس قصار ، ويردد كلمات أقصر من أنفاسه ويقول : الحمد لله ! قتلت خمسة هذا اليوم ! شفيت نفسي ، وأطفأت غلي ، ما أهون الحياة في سبيل الشرف ! ثم فاضت روحه شهيداً كريماً ، فابكرى نيكلسون حمارين واتجه بالرجلين نحو داره ، فلقيته لورا مذعورة ، وجاء بعض الجيران فحملوا الجريح والقتيل ، وكانت الشمس قد غابت في الأفق ، فشمس القاهرة ظلام دامس ، يزعجه قصف المدافع ، وندب الشكالي وأنات الجرحى ، وصياح الأطفال الحائنين الجائعين .

جهاز الميت الشهيد ودفن في الصباح ، وأخذت لورا
تبدل ما استطاع في علاج محمود وتمريضه ، والهم يكاد
يعصف بفؤادهما . ودهمت محموداً الحمى ثلاثة أيام لم تغمض
فيها جفنًا ، ولم تحبس دمع عين ، وأراد أبوها أن يتناوب
معهما السهر عليه ، فأبت وقالت في سخرية مصنوعة : ما أكثر
طمعكم أيها الرجال ! ! لم تكتفوا بمنع المرأة من الجهاد
في ميدان القتال ، حتى جثم تشاركونها في نصيبها القليل
من العناية بالجرحي ! دعني يا أبي فإن للمرأة صبراً ليس
للرجال . ثم ضحكت وقالت : وإن للمرأة قوة روحانية
تبعث في المريض الأمل وحب الحياة .

أفاق محمود من الحمى ضعيفاً هزيراً ، ورأى من رعاية
لورا له وحديها عليه ، وتفرغها لخدمته ، وافتنانها في تسليته ،
والترويح عنه — ما ملأ قلبه حباً لها ، وإعجاباً بخلقها .
ثم نظر فرأى جمالا يأخذ باللب ، ويملأ العين والقلب ،
وقد كان إليها قبل ذلك دائم الحنين . ولم يكن يحول بينه
وبين مصارحتها بحبه ، إلا كبر موهوم ، وعزيمة كاذبة ،
هي أن يصون قلبه لحب زيدة وألا يزحمه بحب جديد .

ولكن أين زبيدة الآن ؟ وأين الثريا من يد المتناول ؟
 إنها زوجة ؛ إنه فقدما إلى الأبد . إنها بعد أن تزوجت بالأجنبي
 أصبحت لا تصلح له ولا يصلح لها . وإن التثبت بحبا
 خيال شعري ، لا يستطيع أن يثبت أمام قسوة الحقائق . . .
 جالت كل هذه الخواطر بنفس محمود وهو ينظر إلى لورا ،
 وقد كانت تغسل جرحه وتعد له الأربطة واللفائف فقال :
 — لقد أزعجتك يا لورا وأتعبتك .

— أنت دائماً رجل متعب يا محمود ، وإذا أردت أن
 تريحني فباعد بينك وبين الخطر .

— وهل يسوءك أن يدفع المرء عن وطنه ؟

— لا . وهذا خير ما أحبه فيك ، ولكن يسوءني أن يمسك

سوء .

— ولماذا ؟

— هكذا أنت دائماً كالأطفال ، تحب أن تعرف كل

شيء .

— أتخافين عليّ حقاً ؟

— إنني أخاف دائماً على الأبطال .

— وتحينهم بالورا ؟ فتارت عواطفها ، وطفرت من عينيها

دمعتان ، وأسرعت فقالت : وأحبيهم .

— وإذا كانوا يحبونك يا لورا ويقدمون قلوبهم بين

يديك ، فهل تحبينهم حباً آخر؟؟

— وهل الحب أنواع ؟

— الحب أنواع وأشكال : حب الرجل للوطن ، وحب الأم لولدها ، وحب الجندی لقائده ، وحب الفتى للفتاة .

فتلعثت لورا وقالت : وما شأنك بهذا الحب الأخير ؟
— هو حبي لك يا لورا الذى فيه حياتى وشرفى ، وفيه
نعيمى وجنتى . ثم مد إليها ذراعيه وجلا مستعطفاً ، فسقطت
بينهما باكية وهى تتمتم : أحبك يا محمود ، وأحبك من
حين أن رأيتك ، وأحبك لأنى أرى فيك كل ما يصوره
خيالى للرجل الكامل ، من بطولة وكرم ودين . أحبك ، أحبك .
فقبلها محمود بين عينيها وقال وهو يلهث : وهل تقبلينتى
زوجاً ؟

— ذلك كان أملى فى الحياة .

ثم أخذوا فى الحديث والضحك والقبل ، وبعد قليل
دخل نيكلسون يسأل عن المريض ، فصاحت لورا :
احذر يا أبى أن ترعج زوجى بكثرة الأسئلة ، فبهت نيكلسون
وأخذ يتأمل فيهما مشدوهاً ، وهما يضحكان . فقال محمود :
نعم زوجها بكتاب الله وسنة رسوله . ووئب نيكلسون على
لورا يقبلها ويقول : لك تهتاتى ودعواتى يا لورا . نعم الصهر

ونعم الكفاء محمود . هذا أسعد يوم في حياتي . كان هذا
الخاطر السعيد يطوف بخيالي فأظنه بعيداً ، وكنت أعتقد
أن ابنتي لورا لا تصلح إلا لمحمود .

ثم اتجه نحو كرسي ليجلس عليه ، فصاح به محمود
لا تجلس يارجل ! الآن تجد جارتنا الشيخ محمداً الصعيدى
في داره ، وتستطيع أن تتفضل بدعوته ليعقد العقد . فخرج
نيكلسون غير متباطيء وأحضر الشيخ الصعيدى وتم العقد ،
وأصبح محمود العسال ولورا نيكلسون زوجاً وزوجة .

ومضى على الثورة ثلاثين يوماً ، وهى تحصد الأرواح
حصداً ، وتدمر كل شىء تدميراً . ولما اشتد الخطب ،
وعظم الهول ، وبلغت القلوب الحناجر ، قام وفد من العلماء
وألح على ناصف باشا وإبراهيم بك وغيرهما أن يضعوا حداً
لهذه الفساجة . وتم إبرام الاتفاق بين الترك والفرنسيين
في الحادى والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ على أن يغادر
العثمانيون مصر ، وعلى أن يصدر كليبر عفواً عاماً عن جميع
سكان القاهرة . وعاد النفوذ للفرنسيين كما كان وزادهم
الظفر تمكناً وسلطاناً .

وفى هذه الأثناء تماثل محمود وعادت إليه قوته ، وبينما
كان في منزله في أحد الأيام ، إذ سمع طرقات على بابه ،
فلما فتح رأى سروراً خادماً زبيدة فدهش لرؤيته ، واستقبله

استقبال الصديق ، وشد على يديه في شوق وترحيب وقال :
 أهلا بسرور . ما كنت أترقب أن أراك بالقاهرة ! كيف
 حال أهل رشيد ؟ ثم تردد قليلا وقال : وكيف حال بنت
 خالتي زبيدة ؟

— كلنا بخير يا سيدى والحمد لله على سلامتك . لقد
 انتقل الجنرال مينو من رشيد وعين حاكماً للقاهرة ، وجئنا
 منذ عشرة أيام ، وجاءت معنا سيدتى نفيسة ، وسكننا بالقلعة .
 وقد أحبت سيدتى زبيدة وسيدتى نفيسة أن ترياك ، فسألنا
 عن منزلك وجئنا ، وهما الآن بالحارة تنتظران .

فلما سمع محمود ذلك أسرع إلى الباب وثباً ، وحينما
 وصل إلى الحارة رأى زبيدة وأمها ، فحياهما في تكريم
 وحفاوة وشوق ، وقادهما إلى مسكنه . وأقبلت لورا فمدت
 ذراعيها لزبيدة وملأت وجهها بالقبل ، ثم مالت على يد
 السيدة نفيسة فقبلتها وقالت : من كان يظن أن يجمع الله
 الشيتين بعد أن حالت بينهما الخطوب والأحداث ؟ فالحمد لله
 على السلامة يا زبيدة ، شرفت يا سيدتى نفيسة . لقد أراد
 الله بكما خيراً أن كنتم بعيدتين عن القاهرة في أثناء الثورة
 لقد قضينا ثلاثين يوماً كنا نموت فيها ونحيا في كل يوم
 ألف مرة . فقالت زبيدة في ضجر وألم : وهل نجت
 رشيد من الثورة ؟ إن جميع البلاد المصرية كانت شعلة من

النيران . فأشارت لورا إلى محمود وقالت : لقد كدنا نفقد في الثورة هذا الولد المدلل المخاطر . فنظرت إليه زبيدة ، والشوق يكاد يفضحها ، وقالت : لقد خلق محمود جريئاً لا يبالي بالأنظار ، ولا بد له من يد حكيمة حازمة تكبح جماحه . فضحك محمود وقال : إني سأتعب يدك كثيراً يا لورا ، لأنني فرس جموح . فهال زبيدة ما تسمع ، وراعها أن ترى تلك السهولة في الحديث بين لورا ومحمود وقالت : أظن أنه يجدر بك يا محمود أن تذهب إلى رشيد بعد هذه الغربة الطويلة والجهد الممض ، فإن أمك تتحرق لرؤيتك . فأجابت لورا : إنه أقسم ألا نعود إلى رشيد إلا بعد أن يغادر الفرنسيون أرض مصر . فقالت نفيسة : أتتوين العودة إلى رشيد يا لورا ؟ فأطرقت لورا في حياء وقالت : أنا سأكون دائماً حيث يكون محمود . وهنا أسرع محمود فقال : لقد نسيت أن أخبركما أننا أصبحنا زوجين ، فقالت نفيسة وقد دهمها الخبر : مبارك . مبارك . أرجو أن يكون زواجاً سعيداً . ثم تنهدت وبلعت ريقها ، واحتالت على ابتسامة خفيفة تخفي بها ما أصابها من ألم وحسرة . أما زبيدة : فقد أخذتها عاصفة من الدهول والحزن والغيرة ، فأطرقت واجمة كأنها كانت تسمع صحيفة الحكم عليها بالموت ، إنها تحب ابن خالتها حباً يقهر كل حب ، وتهيم به هياماً

يعصف بكل هيام ، وهو لها دون غيرها ، وهو تمثال
غرامها الطاهر ، فكيف تمتد إليه يد ؟ وكيف تجرؤ امرأة
أخرى على أن تنعم بحبه ؟ ولكنها هي التي نبذت هذا الحب ،
وأغلقت بابها دون ذلك الهيام ، وحطمت ذلك التمثال بيديها ،
كل ذلك في سبيل أمل موهوم وأمنية كاذبة . . . إن لورا
لم تعمل شيئاً ، وإن محموداً لم يعمل شيئاً ، وهي وحدها
التي نفسها تلوم . هي وحدها التي دمرت سعادتها ، وهي
وحدها التي انتزعت قلبها من صدرها وقذفت به في التراب .
رفعت زبيدة رأسها بعد لحظات وقالت : مبارك يا محمود .
ثم أخذت تخوض في حديث آخر فقالت : إننا جئنا إلى
القاهرة وأحببنا أن نراك فأرشدنا ابن عمك حسين إلى منزلك .
وهنا قالت نفيسة : إن زوجها الجنرال لا يقبل زيارة أحد
من أقاربها . فقال محمود : إن كل سعادتنا أن نعلم أن
زبيدة هائلة سعيدة . فقالت زبيدة : أما السعادة والهناء
فبينى وبينهما سدود وأسوار ، ولكنى راضية بالقضاء
خير من شره . وقد علمتني الأيام ألا أجروء على تغيير القدر ،
وإلا أفسد حياتي بآرائى وآمالى . وهنا تهتت نفيسة طويلاً
وقالت : هل عثرت يا محمود على مكان خالك ؟ فأطرق
ملبئاً وانساب الدمع من عينيه غزيراً وقال : أعظم الله أجرك
فيه يا خالتي ، فقد نال شرف الشهادة ، ومات في ميدان

الجهاد شجاعاً كريماً ، وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً .
وما كاد يتم قوله حتى ارتفع البكاء والعويل ، وكادت نفيسة
يغمى عليها من هول الخبر ، وأخذت زبيدة تبكي وتعدد
مآثر أبيها ونبله وشرفه ، وتصيح كما يصيح الهاذي المحموم :
لقد قتلته ! ولما هدأت الأصوات قليلاً رفعت نفيسة رأسها
وقالت : هلم يا زبيدة . إن المرء لا يستطيع أن يمحو ما كتبه
القدر . ثم ودعتا لورا ومحموداً وانصرفتا .

١٤

في اليوم الثاني والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ استيقظت
القاهرة على موكب حافل ، أراد به كليبر أن يظهر عظمة
ملكه وقوة بطشه ، وأن يحتفل بالنصر المؤزر الحاسم .
فخرج من داره بالأزبكية في جمع خضم من مشاته
وفرسائه ، وكان الجنرال يمتطي جواداً أشهب ، وقد بدا
في وجهه العبوس والأنفة ، وامتألت خياشيمه عظمة واعتداداً .
في هذا اليوم نفسه — والجنرال في قمة مجده — كان يجلس
بفناء المسجد الأقصى بمدينة القدس ، شاب في الرابعة
والعشرين ، نحيل الجسم شاحب اللون ، حائر العينين
مستطيل الوجه ، أنافي ، رث الثياب ، يكثر من هز رأسه

في حزن واضطراب . كان طالب علم ، وكان فقير الحال ،
وبينما كانت الخواطر تتوالت إلى نفسه ، رى ببصره فرأى
طائفة من الجنود العثمانية تتجه إلى مسجد الصخرة ، وقد
نهكهم التعب ، وأكلهم السغب ، وتمزقت ثيابهم وجللها الغبار ،
فهاه أن يرى جنود الإسلام على تلك الحال ، وحز في قلبه
أن يثول أمر حماة الدين إلى ذلك الخور والصغار . رأى تلك
الطائفة من الجنود فقام يسعى إليهم ، وما كاد يقترب منهم
قليلاً حتى رأى بينهم ضابطاً كان يعرفه بحلب ، هو أحمد أغا .
فحياه في شوق وحفاوة ، ثم قال : يبدو عليك وعلى أصحابك
يا سيدى أنكم قدمتم من سفر طويل .

— لم يكن السفر طويلاً يا سليمان ، ولكن . . .

— وماذا وراء (لكن) هذه ؟

— وراءها الحزى والهزيمة .

فبادره سليمان سائلاً : كيف ؟

— هلم يا صاحبي نجلس إلى جانب هذا الجدار ،
فقد يطول بنا الحديث ، وبعد أن جلسا قال أحمد أغا :
خبرني أولاً عن شأنك أنت ، فإن آخر عهدي بك كان
بمدينة حلب منذ أربع سنين .

— نعم كان ذلك منذ أربع سنين ، ولن أنسى كريم
عنايتك بأبي وحدبك عليه ، ومنذ ذلك الحين نزعنت نفسي

إلى أن أكون جندياً، وكان الجهاد في سبيل الله أقصى ما تهفو إليه
 آمالي ، فطالما أيقظتني من غفوتي أصوات الجماهير ، وهي
 تصيح : الله أكبر ! الله أكبر ! لقد أنقذ سليمان الحلبي
 الإسلام من أعدائه ، وروى سيفه من دماهم ! فكنت
 إذا دهمتني هذه النوبة ، أجلس في ظلام الليل الدامس
 حزينا باكياً ، أتلفت فلا أجد سيفاً ولا رمحاً ، وأسمع فلا
 أسمع إلا سكون الليل وهدوءه . ثم أحاول أن أهز ذراعي لأستأنس
 بما قد يكون بهما من قوة على الجهاد ، فلا أهز إلا ذراعين
 ناحلتين ، لا تقويان على قتل ذبابة ، فيزيد بكائي ويطول
 أنيبي ، حتى إذا زاد ما بي ، وطال الأمر على ، وخفت
 أن أوصم بالحنون ، ذهبت إلى إبراهيم باشا وإلى حلب . . .
 — ويل له من ظالم غاشم ! !

— دعك من هذا فلسنا الآن بصدد الحديث عن الناس .
 ذهبت إليه في قصره ، فسخرت في نفسي مما رأيت
 من جنود وأعوان ، وخدم وخصيان ، وأبهة كاذبة
 وعظمة جوفاء ، يعرف هؤلاء الأتراك كيف يصطنعونها
 بإطالة الشوارب وكثرة ما ينتطقون به من خناجر ، ويتكبرونه
 من بنادق . وبذلك الصوت الحشن المفزع ، الذي يظنون
 أنه يغني عن جرأة القلوب وصدق العزائم ، فلما حاولت
 أن أجاوز الباب ، تواب على الحراس والأجناد من كل

مكان في عجب ودهشة ، وركض الفرسان من مواقعهم ،
وأقسم لو أنهم دعوا ليوم كريمة ، ما كانت لهم هذه الوثبات
ولا تلك الحماسة المتأججة . نظروا إلى مشدوهين ، كيف
جرؤت ؟ ! وكيف يصح لفتى فقير ممزق الثياب من أبناء العرب ،
أن يتحدى ذلك الملك الذي لا ينال ، ويطأ بقدميه فناء تلك
العظمة الشماء ؟ ؟ وقفت أنظر في وجوههم ، وفي لمحات وجهي
شيء غير قليل من السخرية ، فصاح بي كبيرهم قائلاً
في اشمئزاز : ماذا تبغى يا عربى ؟ ، قلت : أريد أن أقابل
الوالى . فابتسم في صلف وقال : أنت تقابل الوالى ؟ !
ألا تدري أن ذلك ممنوع ؟ قلت : الذى أعرفه أنه الوالى ،
وأنه يجب عليه أن يقابل من هم في ولايته . قال : وماذا
تريد منه ؟ قلت : ذلك ما أؤثر أن أحدثه به بنفسى . وكان
الباشا حينئذ سمع ضجيج الحراس أطل من نافذة غرفته ،
وسأل عن الخبر ، فلما علم بأمرى دعانى إليه ، وقابلنى
عابساً ، ثم قال بصوت يشبه الزجر : ماذا تريد يا فتى ؟ !
قلت : أريد أن ألحق بالهندية لأجاهد في سبيل الله ،
فضحك حتى سقطت عمامته ، وجلس بعد أن كان
قائماً . ولما التقط أنفاسه ، قال في رفق يتعمده الناس عند
مخاطبة المجانين : تريد أن تجاهد في سبيل الله ؟ ! آه . .
آه . . قلت لى . . هذا شيء عظيم !

أنت رجل لو تفخت فيه الآن تفخة لطار إلى الغرفة
التي أمامي . من الذي وضع في رأسك فكرة الجهاد هذه ؟ !
الجهاد يا بني منزلة لا ينال شرفها إلا الرجل القوي الضخم ،
ذو المتن الأزل والساعد المفتول ، ولو فتحنا باب الجهاد
لأمثالك لأنشأنا جيشاً جراراً للهزيمة والعار .

قال كل ذلك وأنا واجم مفكر ، وقد تطلعت لأجد
حولي خنجراً أغمده في صدره لأستريح من زهوه وعتوه ، فلم
أجد . ثم رفعت رأسي إليه في كبر واعتداد وقلت : هون
عليك يا سيدي . إن ميدان الجهاد أوسع من ميدان القتال .
— وماذا فعلت بعد ذلك ؟

— خرجت من عنده ، وعزمت وأنا في الطريق على
أن أتجرد لدراسة عاوم التصوف والتاريخ ، لأستبين
منها خير سبيل للجهاد . فطلبت من أبي أن يعينني على
الدراسة بالجامع الأزهر ، فزودني بما أردت وذهبت إلى
مصر ، وقضيت بالأزهر ثلاث سنوات ، قرأت فيها على
كثير من علمائه . ولما دخل الفرنسيون مصر ، ورأيهم
يصبون على الأزهر حاصباً من قذائفهم ، تحركت
في نفسي عوامل الانتقام وعزمت على أن أقتل كبيرهم « بونابارت »
ولكني جنت ، واجتذب الشيطان السكين من يميني
فلم أجد لي عزماً ، عندئذ غادرت مصر وأقمت بالقدس .

والآن حدثني عن نفسك ، فقد علمت طوية أمرى .
 فزفر أحمد أغا وقال : إن حديثي لن يطول وإن كان
 ألى طويلا : قمنا من غزة لغزو الفرنسيين بمصر بقيادة
 الصدر الأعظم يوسف باشا ضياء ، وحاصرنا قلعة (العريش)
 حتى استولينا عليها بعد جهد ، وعندئذ شرع الفرنسيون
 يفاضوننا في الصلح على أن يتزحوا عن البلاد . وسمعت
 من بعض الضباط أن المعاهدة تمت وأنها وقع عليها منا
 ومنهم ، ولكني علمت بعد ذلك أن الإنجليز لم يرضوا
 عن هذه المعاهدة ، وأن سارى عسكر كليبر استأنف
 القتال . فالتقى بجيشنا عند عين شمس فأنهار الجيش أمامه
 . كما ينهار الطلل البالى ، وتقهقرنا إلى بليس ، ثم إلى الصالحية ،
 وتفرق جنودنا بدداً ، وهاموا على وجوههم في الصحراء
 أذلاء مهزومين حتى وصلت اليوم مع طائفة منهم إلى القدس .
 ثم جلس على ركبتيه وقال : سليمان ! ألا تستطيع أن
 تعمل عملاً عجز عنه الجيش ؟ !

— هذه كانت آمالي منذ سنوات ، ولكن النفس الإنسانية
 تتبدل باليأس وتشيط الغرائم .

— إن نفسك فوق النفوس ، وهى أبعد من أن تناها يد
 اليأس . إن الإسلام يدعوك لنصرته ، وإذا ضاقت مصر ضاع
 الحجاز وانقطع السبيل إلى بيت الله ، وضريح رسول الله .

— آه يا أحمد !! إن مما يؤلم حقاً أن تريد فلا تقدر .
وهنا خاف أحمد أن تفلت الفريسة من يديه ، فاتخذ
منهجاً آخر في الإغراء وقال : أملك تخاف الموت ؟ !
ما كنت أظن أن للخوف عليك سلطاناً . ما هذا ؟ ! أين تلك
النفس الوثابة ، وأين التهافت على الجهاد ، وأين تلك النفعات
الربانية ؟ ! لقد عاد الضياء ظلاماً ، والعزم أوهاماً ،
والسيف الصارم كهاماً ! ! وأصبحت مخلوقاً أرضياً حقيراً ،
بعد أن كنت تسبح في سماء كلها إشراق ونور .
فتأملت عينا سليمان ، وتجمعت أسارير وجهه وتقبضت
شفتاه شأن العازم المصمم وقال : وماذا أعمل يا أحمد ؟ ؟
— تأخذ هذا الكيس وفيه مائة محبوب ذهباً ، وتذهب
اليوم إلى حاكم غزة ، ليدللك سبيل السفر إلى مصر .
ثم أخرج خنجره من منطقتة وقال : وإذا بلغت مصر
فأغمد هذا الخنجر في صدر كليبر قائد الجيش الفرنسي .
فقدف سليمان بالكيس في وجه صاحبه ، وقال وهو ينتفض
إن المجاهد في سبيل الله لا يحتاج إلى مال . حسبي هذا
الخنجر وسأهز به الدنيا هزاً ، وسأترك به فيها دويماً .
سافر سليمان الحلبي إلى غزة ، وبقي بها أياماً ينتظر
قيام قافلة للتجارة تقصد إلى مصر ، حتى إذا قامت صحبها ،
فبلغ القاهرة بعد ستة أيام . وكان ذلك في اليوم الرابع

عشر من مايو ، وكان يعرف القاهرة من قبل ، فحمل
 خروجه واتجه صوب الأزهر ليقیم برواق الشاميين .
 ولما ضاق بالأمر صدره أفشى بعض سره إلى بعض
 الطلبة من أصدقائه فسخروا منه ، وهزءوا به ، ورموه بالحنون .
 فزاد ذلك من غيظه وحفزه على التصميم . فخرج في صباح
 اليوم الثالث عشر من شهر يونية إلى البحيزة ، يمشى مطرق الرأس
 مدعوراً ، كما يمشى الكلب المسعور ، باحثاً عن كليبر في كل مكان
 كما يبحث الصائد عن طريدته . فعلم بعد طول التسال
 من نواتى سفينته ، أنه يتمشى في كل مساء في حديقة
 قصره بالأزبكية . فرجع إلى القاهرة وكان قد أظله الليل ،
 فحاول أن يصل إلى حديقة القصر فلم يستطع ، فقضى
 ليلته في مسجد قريب . ولما أصبح تتبع خطوات الجنرال
 وسار في إثره إلى « الروضة » ، ثم عاد خلفه إلى القاهرة ،
 واستطاع التسلل إلى الحديقة فكن فيها خلف ساقية . وأخذ يتلو
 آيات من القرآن في الجهاد وفي ثواب المجاهدين ، وما كاد
 يفتح عينيه حتى دخل كليبر - ومسيو « بروتان » المهندس
 - الحديقة ، فنهض سليمان واقترب من الجنرال في ذل متصنع ،
 فظنه مستجدياً فلم يأبه له ، ولكن سليمان وثب عليه كما
 يشب النمر الجائع ، وطعنه بخنجره طعنة قاتلة فسقط مضرجاً
 بدمائه . وهم مسيو بروتان أن يتعقب القاتل ، فلما أمسك

به طعنه سليمان سنت طعنات ، خر بعدها لليدين والقم ،
ثم عاد إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليقضى على آخر
مسكة من حياته ، ولم تحدثه نفسه بالفرار . ولكن غريزة
حب البقاء دفعته إلى جدار في الحديقة فاخفى عنده ،
وجاء الحراس فرأوا قائدهم وقد أسلم الروح ، فهاهم الأمر ،
وأقسموا على الانتقام من مصر وأهلها ، وأن يدكوا أركانها
دكاً . ونفذوا في أبواقهم ليجمعوا شتات الجنود المنتشرين
بالقاهرة ، واهتزت أرجاء المدينة وزلزلت للحادث الجلل .

١٥

كانت القاهرة يلفها غبش الظلام ، حينما انطلق جنود
الفرنسيين في أنحائها غاضبين مهلدين بمحو القاهرة من
صهيفة الوجود . وقد تسابقوا إلى القلاع والتلال ، وصوبوا
مدافعهم نحو المدينة المسكينة ، واعتزموا أن يجعلوها نفساً ،
وآلا يبقوا بها نفساً . ووصل الخبر المشوم إلى السكان
فهرعوا إلى ديارهم ليفروا من الموت إلى الموت ، وعلا
الضجيج ، وصاح النساء من نوافذ المنازل مولولات
ناعيات ، وبكى الأطفال مفزوعين لهذا الهول العظيم .
وكان نيكلسون ومحمود بقهوة بنخطة سيدنا الحسين ،

فلما وصل إليهما الخبر بهتا وأخذهما أول الأمر ما يشبه
الذهول ، ثم قال نيكلسون :

— من يكون القاتل يا ترى ؟

— يكون من يكون ، فلن تفلت مصر من أكبر نكبة
في تاريخها . وتكون النازلة أعظم إذا لم يعثروا على القاتل .

— ويل للقاهرة ثم ويل لها ! لقد أصبحت منذ دخل
الفرنسيون غرضاً لا تخطئه السهام . هلم بنا إلى الدار فقد
تركنا بها لورا وحيدة ، وأخاف أن يمسيها سوء .

وبينا هما في الطريق قابلهما السيد أحمد المحروقي ، وصاح
بهما : لقد وجدوا القاتل . فسأله نيكلسون قائلاً : وأين وجدوه ؟

— الحق أنه هو الذي أوجد نفسه ، فإنه لم يحاول
الفرار ، ولم يغادر حديقة القصر . وقد علمت أنه طالب
حلبى ، والفرنسيون يعتقدون أن وراء الأكمة ما وراءها .
فقال محمود : غداً يتبلج الصبح لدى عيني ، إن القاهرة
في هذه الليلة لن تنام ، وكيف ينام من تنصب له أشراك
الحمام ؟ !

ثم انطلقا حتى بلغا دارهما ، فوجدا لورا لدى الباب
والهة حزينة ، حتى إذا رأت محموداً سقطت بين
ذراعيه ، وأخذت تبكي وتضحك في آن . ثم اتجهت
إلى أبيها وقالت : لقد قتلى طول انتظاركما في هذه الليلة

الليلاء ، وقد أصمت صفارات الفرنسيين أذنى وهم يجوسون
خلال الطرق فى شبه جنون محموم . هل قتل كليبر حقاً ؟
فقال محمود : نعم قتل حقاً ، قتله شاب حلبى فدائى
فما يظهر ، وإنى أمقت الوسيلة وإن ارتحت إلى الغاية .
— حسناً يا محمود ، وإن كان بعض الناس يرى أن الغاية
تبرئ الوسيلة .

فقال نيكلسون : هذا رأى فائل شديد الخطر ، لو
أخذ به لهدمت الأخلاق جميعاً ، ولتحول الناس إلى ذئاب
وثعالب . إن الغدر ليس من الشجاعة فى شيء ، وإن
من الرجولة أن يجبه الرجل خصمه فى نزال شريف .
فقالت اورا : هذا صحيح يا أبى ، ولكنى ، أظن أن
الأمر يختلف إذا اختلف الحصان فى القوة .

— هونى عليك يا بنيتى ، ودعينا — كما يقول الإنجليز —
نتفق على أن نختلف . اتظنين أن الفرنسيين سيصبون نقيمتهم
على البلد ؟

— ما أظن بعد أن قبض على القاتل وتبين أنه حلبى .
وقال محمود : أخشى أن يجرم البحث إلى تتبع المتآمرين
الذين كانوا يغشون بيت الشيخ السادات ، وحينئذ فعلى
وعلى نيكلسون وعلى السيد عمر مكرم ، والسيد المحروقى
السلام . فقال نيكلسون : لا يا محمود إننا كنا نتآمر على

إخراجهم من البلد لا على قتلهم غيلة . الذى أظنه أن موجة العذاب ستزحف على الأزهر ، لأن القاتل كان أحد طلابه . ثم دلفوا إلى مضاجعهم ، والقاهرة ساهدة ناصبة . ومر يومان ثم فيهما تحقيق الحادث الجلل ، وحكم على سليمان الحلبي بقطع يمينه التى صوبت الخنجر إلى صدر القائد العظيم ، وبصلبه فوق مخزق وترك جسمه لجوارح الطير تتخطفه ، وبقتل طلبة أربعة كان أفضى إليهم بسره . ثم احتفل الفرنسيون بجنائز المقتول احتفالا ضخماً .

وحينما قتل كبير ، أطل الجنرال مينو برأسه من الغمرة التى كان فيها ، ووثب إلى قيادة الجيوش الفرنسية ، وأصبح حاكم مصر المطلق .

أما زبيدة : فحينما وصل إليها الخبر ، وعلمت أن زوجها أصبح حاكم البلاد ، وأنها أصبحت ملكة مصر كما زينت لها « رابحة » العرافة منذ سنتين — أخذتها نوبة مبهمة مختلطة ، يمتزج فيها السرور بالحزن ، والرضا بالسخط ، والتصديق بالسخرية والازدراء . وأخذت تناجى نفسها فى أسى ممض قاتل : أهذه غاية المطاف ؟ ! وتلك هى الأمنية الخداعة التى أطفأت بها سراج حياتي ؟ ! ولذلك الاسم الأجوف ضحيت بحب محمود الطاهر النقي ؟ ! ذلك الحب الملائكى الذى لو مس الهاجرة لعادت نسيما ، أو امتزج بالماء لكان

تسنيا ؟ ! أنا ملكة مصر ؟ ولن أستطيع أن أخرج من داري ،
بالضحك القدر وبالسخرية وباللعار !

وتوالت الأيام ، وأظهر كل يوم منها تعثر « مينو »
في سياسته فقد عبث بقواد الجيش كما شاء حقه ، فعزل
منهم من عزل لسخائم في نفسه ، ورفع من رفع من غير
حق . فذعر القواد لهذه القوضى وسخط الجنود ، وتبددت
وحدة الجيش ، وألف ديواناً جديداً للأحكام ، جعل بين
أعضائه صهره العزيز السيد عليا الحمamy ، ثم اتجه إلى أهل
مصر فأرهمهم بالضرائب الفادحة ، وأكثر من المصادرة
وسجن الأبرياء وهدم الدور ، حتى محبت أحياء بأكملها ،
وزاد في سخط الجيش أن زبيدة وضعت له غلاماً فسماه :
سليمان ، شماته في كليبر ، وتنوياً باسم قاتله .

وفي مارس سنة ١٨٠١ ذاعت بين الناس ذائعة تلقفتها
الأنفواه ورددتها المجامع ، وتنفس الناس لها الصعداء ،
وكان نيكلسون ومحمود العسال يزوران السيد المحروقي في داره ،
فوجدوا عنده الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، فسأله نيكلسون :
ما هذا الخبر الغريب يا مولانا ؟

— لم يصبح الخبر غريباً يا سيدي السوسي ، فقد وصلت
عمارة إنجليزية إلى أبي قير ، فهزمت الفرنسيين ونزلت
إلى البر ، ودارت معركة بالإسكندرية بالمكان الذي يدعونه

بقصر القياصرة ، كانت الغلبة فيها للإنجليز أيضاً ، وسافر « مينو » إلى الإسكندرية ، لتم الهزيمة .

— أوافق أنت من هزيمة الفرنسيين .

— كما أثق بالعدل الإلهي . إن الفرنسيين ليسوا كما كانوا

أيام بوناپرت ، وقد قضى مينو على البقية الباقية من حماسهم واجتماع كلمتهم ، وراح يبدد جيشه في كل أنحاء مصر .

فكيف يستطيع بفئة قليلة أن يلاقى جيشاً عظيماً ؟ !

— ما رأى سيدنا الشيخ في الإنجليز ؟

— أخاف أن تكون لهم نية في مصر ، وأنهم يركبون

الترك مطية لأغراضهم .

— إن الإنجليز قوم شرفاء .

— وما شأن هذا بالشرف ؟ إن للكون نظاماً ، والفوز

دائماً للقوى .

وانقضى المجلس وتوالت الإشاعات في كل يوم ، ورقص

عوام القاهرة وطربوا لكل خبر جديد ، وأنشد الصبيان

الأناشيد في المكاتب والطرق ، وخرج شذاذ « الحسينية »

و « العطوف » و « الرميّة » في جموعهم يتحدون الفرنسيين ،

ولم تمض أيام حتى وثب جيش الترك والإنجليز على أرباض

القاهرة ، فدعر الجنرال « بليار » نائب « مينو » وعقد

مع المغيرين معاهدة من شروطها : أن يغادر الجيش الفرنسي

بلاد مصر في أقرب ما يكفى من الزمان لرحيله .
 أما مينو فاضطرب أمره بالإسكندرية وركب رأسه ،
 وقذف بجنوده في غير حزم إلى موت محتوم حتى إذا سقط
 في يده ، ورأى أنه ضل الحادة وتقطعت به وسائل الدفاع ،
 سلم سيفه مهزوماً ، وعاهد الترك والإنجليز في السادس
 والعشرين من أغسطس سنة ١٨٠١ على مغادرة مصر ،
 فأقيمت معالم الأفراح في كل مكان . وأشرقت الشمس
 بنور ربها فبددت غياهب الأحزان ، ونظر الفرنسيون إلى
 الجنوب وهم مبحرون من الإسكندرية ، بعد أن تمزقت
 آمالهم ، فإذا أبو الهول لا يزال يتسم ! !

١٦

كانت زبيدة ذات صباح في غرفتها ، وهى فى هم
 ناصب وحيرة قاتلة : أتفرح بلقاء الغاصبين عن بلادها ،
 أم تحزن بلحلتها عن بلادها ؟ ولماذا تفارق أهلها وديارها
 إلى قوم هم عنها غرباء ، وهى فيهم دخيلة ؟ ألهذا الزواج
 الذى عبث بنسبتها فأصبحت لا شرقية ولا غربية ،
 ونقلها من بيتها التى فيها نشأت ، وفى جوفها نمت ، وفى
 ظلال آمالها تفيأت - إلى بيئة أعجمية أصبحت فيها غريبة

الوجه واليد واللسان . لماذا تفارق أرضها وديارها ؟ إن زواجها كان خطرة من وسواس مينو ذى الخيال الخصب والعقل العجيب ، وليانة أراد قضاءها فى مصر .

وبينما هى تغوص وتطفو فى هذا الخضم المائج من الأخيلة والأفكار ، إذ صاح ابنها سليمان وكان نائماً ، فهرعت إليه حذبة مشفقة مدلة ، وأخذت تناغيه وتناجيه بألفاظ عذبة ، تعرف الأمومة العطوف كيف تصوغها ، ثم شرعت تحدثه كأنما تحدث فتى يافعاً وتقول : ستبقى معى هنا يا فتى العزيز إذا ذهب أبوك إلى فرنسا ، سنعيش هنا يا سليمان سعيدين ، وستنال من حبي أضعاف أضعاف ما كنت تناله من حب أبيك . إن فى قلبى حباً قديماً مكظوماً كتمته وأحكمت سده ، وقد كنت فى يوم من الأيام أريد أن أسعد به كما تسعد الفتيات ، فجاء أبوك فى طريقى فسددته عنه وعن الناس جميعاً ، فخلده كله يا سليمان ، فإنه حب نقي كماء الغمام ، طاهر كصحائف الأبرار ، عظيم كموج البحر . إنك إن تذوقته أغناك عن حب أبيك ، إنه حب فتاة والهة ضباع أملها ، وأم روم تحيا مرة أخرى فى وحيدها . وهنا ضحك الطفل — وكان فى شهره السابع — وحرك يديه ، فقبلته وقالت : أتضحك من أمك يا سليمان ؟ ! اضحك منها كما تشاء فقد ضحك منها أبوك ، وضحك منها الناس جميعاً ، ولكنك ستبقى لى

على كل حال ، ربحانة حياتي وقرة عيني . وإذا طلبك أبوك فقل له في رجولة وشهامة : سأبقى مع أمي فاذهب أنت حيث شئت ، إن أبناء النيل لا ييغون بمائه الطاهر بديلا ! أنت مصرى يا سليمان . أنت مصرى بلا شك لأنى مصرية ، وأنت فلذة منى ، فدع أباك الفرنسى يذهب إلى بلاده كما يريد ، وتعال نعد إلى دارنا في رشيد ونجمع حطام تلك الذكريات الحلوة ، التى عبثت بها العواصف وبددتها الخطوب .

ثم طافت بوجهها جهومة قاتمة ، وقالت : وإذا حتم أبوك أن تذهب معه إلى فرنسا فإذا تفعل ؟ أذهب معه ؟ إنك إن فعلت قتلت أمك يا سليمان . إني أؤثر أن تتزع روحى من جسمى على أن تتزع أنت من يدى . وهنا طرق الباب خادما « سرور » وكان معه « روفائيل » المترجم جاء يحمل رسالة من مينو قدم بها جندى من الإسكندرية ، فأذنت لها بالدخول . وأخذ روفائيل يترجم الرسالة وكانت موجزة جافة يأمر فيها زبيدة بالرحيل العاجل إلى رشيد ، لتترك السفن التى ستقل جيش الجنرال « بليار » إلى فرنسا ، ويهددها فى آخر رسالته بأنها إن أبت الرحيل ، فعليها أن تسلم ولدها إلى مسيو « إستيف » مدير الشؤون المالية ، ليحمله إلى أبيه بالإسكندرية . وما كادت زبيدة تسمع الرسالة ، حتى

جن جنونها ، وصاحت في وجه روفائيل :

اذهب وقل لسيدك : إن مخلوقاً في الأرض لن يستطيع أن يأخذ مني ولدي ، ثم قل لسيدك : إنه لم يعد حاكماً على مصر حتى يتبع معي أساليبه التي قضت عليه وعلى ملكه .

ثم قل له مرة ثالثة : إن زبيدة مصرية ، وإن ابنها مصري ، رغم أنف القوانين التي تأتقم في وضعها .

وحينما سمعت أمها صياحها أقبلت مذعورة ، وكانت في غرفة بعيدة مع ابنها الحمأى ، فلما علمت الخبر انفجرت بالبكاء ، ووقف إلى جانبها « سرور » وهو يدافع الدمع فلا يستطيع . . وكان المترجم « روفائيل » قد خرج بعد أداء رسالته مسرعاً ، فلاحق بالمسيو « إستيف » في دار ديوان الأحكام وأخبره الخبر ، فأسرع إستيف إلى قصر مينو وطلب مقابلة زبيدة ، وكان ينتفض من الغضب ، فلما قابلها قال لها في حزم وتصميم : إن زواجها بالجنرال لم يكن لعبة لاعب أو سخرية ساخر ، وإنما هو زواج شرعى له كل مطالب الزواج الشرعى ونتائج . أما أن الجنرال لم يعد حاكماً لمصر ، فتلك مسألة ليس للنساء أن ينخضن فيها ، ولكن الذى يعلمه ، والذى يجب على السيدة أن تعلمه ، أن من مطالب الجنرال مينو الأولى عند الاتفاق على نزوح الفرنسيين عن مصر — أن تتخذ الوسائل الأمينة

لسفر زوجه وابنه إلى فرنسا . فإذا كان مينو حاكم مصر
أو لم يكن ، فإن الترك والإنجليز سينفذون هذا المطلب ،
رضيت السيدة أم أبت . وإذا بلغت بالسيدة رقة العاطفة
بحيث لا تستطيع أن تغادر وطنها ، فإننا لن نجرؤ على مس
تلك العاطفة النبيلة ، ولكننا نكتفى بحمل ابن الجنرال إليه
لأنه فرنسي السلالة ، بمقتضى المادة الحادية عشرة من عقد
الاتفاق المسجل بمحكمة رشيد .

سمعت زبيدة هذا الحديث أو هذا التهديد فصعقت ،
وتطلعت إلى مسيو إستيف في استعطاف يفتت الصخر؛
فلم تجد في وجهه إلا عبوساً وبيساً ، ثم تهتت وقالت :
ألا ينتظر الجنرال سنة حتى ينمو الطفل قليلاً ويتحمل
مشاق السفر ؟ فقال إستيف في إيجاز : السفر غداً .

وهنا هزت زبيدة رأسها وقالت في شمم اليائس : سأسافر
بالطفل غداً ، ويفعل الله ما يشاء . ثم كفكت دموعها
وقالت لسرور : أعد كل شيء يا سرور . وهمت أمها
بالبكاء نصاحت بها : ليس هذا وقت البكاء يا أماء ،
إنما هو وقت الصبر والتسليم لأحكام القدر .

فأعد سرور كل شيء للرحيل ، وحتمت والمدة زبيدة
عليه أن يسافر مع سيدته إلى فرنسا ، وذاع خبر سفر
زبيدة بين أهلها بالقاهرة ، فاجتمع في الصباح بالقصر :

السيد المحروقي ، وزوجته أمينة ، وابنه وابنته ، ومحمود العسال
ونيكلسون ، ولورا . وكانت فترة من الحزن تعلو وجوههم كأنهم
جاءوا لتشيع جنازة ، ونزلت زبيدة من السلم وحولها أمها
وأخوها وسرور ، وخادمة تحمل ابنها سليمان ، فسلمت
على مودعيها واحداً واحداً في صمت وتجلد . ولما جاءت
للسلام على ابن خالتها محمود لم تملك إلا أن تعانقه ، وتطبع
على جبينه قبلة صامته . ولما همت لتركب المحفة إلى
ساحل بولاق ، اتجهت نفيسة إلى سرور وهي تحمل
في يدها كيساً ثقيلاً وقالت : هذا الكيس يا سرور به
ألف محبوب ، فاحفظه معك ولا تنفق منه شيئاً ، فإذا
وقعت سيدتك زبيدة في ضائقة فأنفق منه ما تشاء لتخليصها .
وركبت زبيدة المحفة بين بكاء الباكين وعويل المعولين ،
واختفت عن الأنظار كما يختفي حجر صغير يقذف به
في بحر خضم .

وسار محمود ولورا مع خالته نفيسة حتى بلغا دارهما ،
وحينئذ قالت لورا : لم يعد لنا بقاء بالقاهرة يا محمود .
— إن سرورنا بخروج الفرنسيين ضيع نشوته حزنا على
زبيدة ، وقد أقمنا بالقاهرة لمناجزة الغاصبين ، لذلك أرى ما ترين .
فأسرع نيكلسون قائلاً : لنسافر غداً إذا مع السيدة
نفيسة . ولما عقد الاتفاق على السفر ، خرج محمود إلى ابن

عمه حسين فأخبره بما عزم عليه ، ووجد عنده سعداً الشباسي المراكبي ، فعلم منه أنه سيسافر إلى رشيد بعد يومين . فتركهما محمود وأخذ في الاستعداد للسفر ، حتى إذا جاء اليوم الموعود ركبا في السفينة إلى رشيد .

١٧

وصلت السفينة إلى رشيد بعد ستة أيام ، والتقى محمود بأمه بعد طول الغيبة ، فرآها لا تزال ملازمة فراشها ، ولكنها انتعشت لرؤيته ودب فيها ديب الحياة . ثم قدم إليها لورا ، فقبلت يدها في أدب جم ، وأخذت السيدة زينب تحدد النظر إليها وتصوبه ثم صاحت : هذه ابتنا لورا ؟ أين كنت يا بنيتي كل هذه المدة ، أيجمل بك أن تتركى خالتك المريضة دون أن تروحي عنها بزيارة قصيرة .

فقال محمود : إنها كانت في القاهرة يا أمي منذ دخول الفرنسيين مصر ، وقد كانت ترعى ابنك محموداً ، وتمرضه وهو جريح ، حتى عاد إليك رجلاً قوياً يحملك هكذا ، ويقبلك هكذا . ثم حملها وأخذ يغمر وجهها ويديها بالقبل وهي جذلى فرحة . ثم قالت وقد التقطت أنفاسها : إنك لا تزال غلاماً شقيئاً كعهدي بك . وأين أبو لورا ؟

— ذهب إلى منزله الذى كان يسكنه «إلياس فخر»
 المترجم ، لأنه رحل مع الفرنسيين فأتجهت إلى لورا وقالت :
 لقد كان منزلك جميلا يا لورا ، كنت كلما زرت مقام
 سيدى الإدفينى عرجت عليه لأجلس بجانب إحدى نوافذه
 الشمالية ، لأتمتع بشميم أزهار الحدائق حوله . فأسرع محمود
 وقال : إنه لم يعد منزل لورا يا أمى .

— ألم تقل : إن المترجم رحل عنه ، وإن الحاجة نيكلسون
 عاد إليه ! . . .

— نعم . ولكن لورا يحول الآن بينها وبين سكناه حائل عظيم .

— حائل عظيم ! ! ما هو ؟ فابتسم نحو لورا وقال :

— الشرع الشريف والمحلب الشريف .

فقالت أمه : أنا لا أفهم هذه الألغاز !

— وهذا بعض ما تستحقين ، فطالما ربهكت عقلى

بالأحاجى «الفوازير» وأنا صغير لا قبل لعقلى بها .

— دع هذا يا محمود وخبرنى جليلة الخبر .

— إن لورا تزوجت .

— ألف مبارك يا لورا . بمن ؟ فقال محمود :

— بمن لا يحب فى الدنيا إلا امرأتين : هى . . وامرأة

أخرى تجلس الآن فى سريرها .

— رجعنا إلى الألغاز . بمن بحقك ؟ ؟

— بابنك محمود .

فاتجهت زينب إلى لورا ومدت إليها ذراعها ، وأخذت
تقبلها بين الضحك وانهمار الدموع ، ثم قالت وهي تداعبها :
عرفت سر تكرار زيارتك لحالتك حينما كنت برشيد .
ثم ضحكت وقالت : هؤلاء البنات لا يغلبهن غالب حينما
يردن ، وقد خلفت هن أمهن حواء تلك الشبكة المحكمة
الأطراف التي تصيدت بها أباهن آدم . ألف مبارك
يالورا . من مثلي الآن في رشيد ؟ لي ولد وبنت صورهما الله
من جمال وحسب وخلق كريم ! الآن لا أحب أن أموت !
ثم أمرت الخدم أن يعدوا لها غرفة خاصة بهما ، وبعد
قليل هجس بنفسها هاجس أليم انقبض له وجهها فقالت :
لقد علمت بخاتمة نكبة بنت خالتك يا محمود ، إنها لمصيبة ،
أخف منها الموت . وكيف حال أختي نفيسة ؟

— جاءت معنا من القاهرة وذهبت إلى دارها .

— مسكينة !! لن تجد بدارها أنيساً إلا إذا اتتنس البائس بما
يؤول من الذكريات !! مسكينة مات زوجها الشهم الذي لم
تشرق شمس رشيد على مثله ، وضاعت بنتها غنيمة للفرنسيين ،
حتى كأنهم لم ينزلوا مصر إلا لاختطافها ، وبقي لها . . ماذا
بقي لها ؟ ! الشكل والجزع وابنها على الحمامي .

— آه يا أماء !! إن رزيتنا في زبيدة فوق الاحتمال .

فأرسلت أمه نظرة خاطفة إلى لورا وقالت : ذلك قضاء الله يا بنى . من كان يظن أن الشرق يتزوج غربية ، والغربي يتزوج شرقية ! آمنت بالله ، آمنت بالقدر خيره وشره !
وفي هذا اليوم غير نيكلسون زيه فارتدى ملابسه الإفرنجية ، وطلق اسم الحاج محمد السوسى إلى غير عودة ، وقابل شريكه « أورلندو » فضبط معه حسابه مدة غيبته ، وعاد إلى متجره بشارع البحر كما كان ، مغتبطاً مسروراً برحيل الفرنسيين ، مزهوفاً فخوراً بأن قومه هم الدين أجلوهم عن البلاد .

ومرت سنوات ست على محمود حتى أظلمت سنة ١٨٠٧ وهو هانى سعيد بزوجته ، وقد زاد بها تعلقاً وزادت به حباً . وفي خلال هذه السنوات اضطربت الأحوال بمصر ، واشتد الصراع بين الترك والمماليك ، وشايع زعماء المصريين محمد على باشا ، واختاروه والياً على مصر ، وتجرد لمحاربة المماليك واستتصال شأفتهم .

وفي ذات ليلة بينما كان محمود ولورا يزوران نيكلسون ، دخل حسين العسال ابن عم محمود ، وقال وهو يلهث من التعب : لقد بحثت عنك يا محمود فى كل مكان . جئت اليوم من الإسكندرية وهى فى أشد أحوال الكرب والاضطراب ، فقد نزل بها بالأمس جيش إنجليزى واحتل المدينة ، والناس فى حال يرثى لها ، لأنهم لم يكادوا يفقهون

من صدمات الفرنسيين ، حتى سقطوا في أيدي الإنجليز .
وقد علمت من الشيخ المسيرى أن قائد هذه الحملة يدعى
فريزر . فبهت محمود وقال في ذهول : جيش إنجليزي ؟
- نعم فلاني أعرف الراية الإنجليزية ، وأميز ملامح
الإنجليز من أى جنس آخر . فقال محمود : ولماذا قدموا
يا ترى ؟ فأجاب نيكلسون وقد أدرك حرج موقفه : إنهم
لم يجيئوا لامتلاك البلاد ، والذي أعلمه أن الدولة العثمانية
حالفت نابليون ، وقطعت صلاتها بإنجلترا ، فخاف
الإنجليز أن يستغل الفرنسيون صداقتهم الجديدة للترك
فيعودوا إلى احتلال مصر ، فجاءوا لدرء الخطر الفرنسي
عن مصر . وربما كان مجيئهم استجابة لدعوة من المماليك .
فقال محمود ساهماً : هذا كلام حسن يا صاحبي ، وأرجو
أن يكون الأمر كما تقول .

وبعد أيام كانت رشيد في قلق واضطراب ، فقد شهد
الناس من مثلثة مسجد زغالول جيشاً مقبلاً على المدينة .
ولم يكن برشيد من العدة وآلات القتال ما تستطيع أن تدرأ
به جيشاً غازياً ، ولم يكن لها من الأسوار إلا أطلال عصف
بها الرياح والأنواء . وما كانت إلا ساعة من نهار ، حتى
دخل الإنجليز المدينة بغير قتال ، فثار السكان وغضبوا . وكان
محمود العسال في حيرة بين واجبه وحبه ، فما كان يصبح في عقله

أن يقتحم المغيرون مدينته وهو واقف مكتوف اليدين .
ولكن لورا ؟ أيحارب قومها ؟ لقد كاد قلبه لشدة شغفه
بها يتسع لحب الإنجليز جميعهم .

جلس حزينا مفكرا ، وأصوات الناس وعجيجهم تملأ
أذنيه ، وهم مسرعون للقتال . فدخلت عليه لورا وقالت :
— في أى شيء تفكر يا محمود ؟

— أنا في حيرة بينك وبين وطني يا حبيبتي .

— بيني وبين وطنك ؟ إن قومي بخير يا محمود ، وإن
قومي يمجدون الشهامة كيفما كانت ، حتى إنهم لم يجدونها
في أعدائهم . وإنني لم أحبك إلا لبطولتك وإقدامك ،
وغيرتك على بلادك ، فإذا تخليت عن هذه الصفات
لأجلى فقد تخليت عن حبي .

لا يا حبيبي سر على بركة الله مجمع القلب باسم
الوجه ، وعد إلى زوجتك الواطئة مظفراً منصوراً .

فوثب إليها يقبلها وتقبله في شغف وحنان ، ثم اختطف
بندقيته وقفز إلى باب الدار ليلحق بالجموع الزاخرة التي
شمرت للدفاع عن المدينة ..

وكان الحشد عجيباً حقاً ، اجتمع فيه الرجال والنساء
والشيوخ والأطفال ، وكانت العصي والحجارة أكثر ما يرمى
به هذا الجيش من عدد القتال ، فتقدم محمود الجمع ، ودعا

إلى الهجوم بين تهليل المهللين وتكبير المكبرين ، ولما احتدم القتال
ولاح النصر في جانب أهل المدينة ، رأى محمود رابية
لا تزال تتحصن بها ثلة من الجنود ، فدعا إلى محاصرتهم ،
ولكنه لم يكد يتقدم منهم قليلا حتى رماه أحدهم برصاصة
اخرقت صدره فسقط على الأرض صريعا .

وهنا ثار السكان ووثبوا وثبة رجل واحد ، فتراجع الغزاة
وغادروا المدينة ، وعاد الجموع يحملون جثة محمود بين
البكاء والعيول ، حتى وصلوا إلى بيته ، فهرعت لورا
المسكينة إلى زوجها المقتول نادية باكية ، وروت بنفسها
عليه تعانقه وتقبله ، وتخاطبه كأنما هو حي مدرك ، بالفاظ
تقطع نياط القلوب ، وعبارات تستنزف ماء العيون .

وفي الصباح هرع الناس للاحتفال للجنازة ، وأخذ
المؤذنون فوق المآذن يشيدون ببطولة الراحل ويمجدونه ،
ويستمطرون عليه الرحمات

ثم حمل أعيان المدينة النعش على أعناقهم إلى مدفن شهاب ،
وعاد المشيعون يرددون الدعوات ويرسلون الزفرات .

أما لورا فقد أصابها طائف من الدهول ، فكانت
تخرج في كل صباح مع خادمتها ذاهلة مأخوذة ، فتذهب
إلى الحدائق لتجمع أنضر أزهارها ، ثم تتجه إلى قبر
زوجها فتنثرها فوقه ، وتجلس مطرقة صامتة حتى يظلمها

الليل ، فتعود مع الخادمة .

وفي إحدى الليالى الممطرة المظلمة ، سمعت السيدة نفيسة طرقة على باب دارها ، فأيقظت خادمتها لتفتح الباب . وما هي إلا لحظة حتى صعد سرور ومعه سيده زبيدة ، فلما رأت زبيدة أمها سقطت بين ذراعيها باكية ، وطفقت تقبلها وتهتف بكلمات متقطعة . أما أمها فقد أدهشتها المفاجأة ، فأخذت تهذى وتبكي ، ثم تفتح عينيها واسعتين لترى أنى يقظة هي أم فى منام . فلما سرى عنها قليلا تأملت فتاتها المحبوبة ، فرأت هزالا وسقما ، ووجها شاحبا شاعت فيه الغصون ، فهزت رأسها فى شجن وأسى واتجهت إلى سرور فقالت : قل لى كل شىء يا سرور . فزفر سرور زفرة طويلة ثم قال : سافرنا من رشيد إلى فرنسا ، ثم لحق بنا الجنرال مينو بعد شهر ، وأقمنا بباريس ، وفى هذه المدينة تبدلت أخلاق الجنرال ، وكنت دائماً أوصى سيدتى بالصبر ، ثم رحلنا إلى إيطاليا فى مدينة يسمونها «تورينو» فزادت حدته ، وتضاعف احتقاره لسيدتى بما لا يحتمل . ثم هجر المنزل ، وترك سيدتى تقاسى غصة الفقر وألم المهانة . ولم نصبر هذه المدة الطويلة على هذا الأذى ، إلا من أجل ابن سيدتى سليمان ، ولكن الجنرال شمر أخيراً عن ساعديه ، وضرب القاصمة ، فأرسل ابنه إلى فرنسا ليضعه فى إحدى الأسر الشريفة لتثقيفه

وتعليمه . وعندئذ لم يبق في قوس الصبر مترع ، ولم تجد
 سيدتى في البقاء بإيطاليا — بعد أن انتزع ابنها منها —
 إلا موتاً بطيئاً تحيط به الهموم والأحزان ، فعزمنا على الفرار ،
 وأخرجت كيس المال الذى أودعته عندى يوم رحيلنا ،
 فسافرنا خفية في ظلام الليل إلى مدينة تسمى « نابلى »
 ومنها ركبنا سفينة إلى الإسكندرية ، فوصلنا إليها أمس ،
 ثم اكترينا بغلين إلى رشيد . فتهدت نفيسة وقالت : نعم
 ما صنعت يا زبيدة !! ستعيشين بجانب أمك هائلة سعيدة ،
 وستمحو الأيام تلك الذكريات القاسية ، فإن كل شئ « ينهى »
 يا بنيتى في هذه الحياة .

— كما تشائين يا أمى . كيف حال ابن خالتى محمود ؟
 فوجئت نفيسة وسقط في يدها ، لأنها ما كادت تظفر
 بهدئة بنتها حتى اصطدمت بسؤال يثير الآلام . ولكنها
 جمعت شجاعتها وقالت : إن هذه الدنيا لا يركن إليها يا زبيدة .
 — ما معنى هذا ؟

— لقد قامت حرب بالمدينة منذ شهر ، كان محمود
 بطلها المغوار .

— أجرح ؟

— نعم جرح جرحاً بالغاً .

— وكيف حاله الآن ؟

— إنه الآن لا يتألم يا زبيدة : إنه في جنات النعيم !
 فشبهت زبيدة شهقة كادت تودى بها ، فعادت أمها إلى
 تهدئتها وتسكين ثورتها ، وانقضى الليل كله في بث وبكاء ،
 ومحاولة للتصبر والعزاء .

وعند ما بزغت الشمس سألت زبيدة أمها عن مكان
 قبر محمود ، وأخذت معها سروراً ، فانطلقت إلى القبر
 هالعة جازعة ، حتى إذا بلغت رأّت امرأة جاثية عنده ،
 مطرقة ذاهلة ، فلم تتبين وجهها . فجثت قبالتها في صمت
 ونخشوع ، ثم غلبتها الزفرات فتشبهت المرأة ورفعت رأسها ،
 وحين نظرت زبيدة إليها من خلال الدموع صاحت :
 — لورا ؟ أنت لورا ؟ ونظرت إليها لورا نظرة المذهول وقالت :
 — زبيدة ؟ أحقاً أنت زبيدة ؟ ثم غلبهما البكاء فأطرقتا ،
 وطال هذا الإطراق ، حتى إذا قلق سرور لطول صمتهما
 قام فرأى لوله أنهما فارقتا الحياة ، فأسرع إلى سيدته
 فأخبرها الخبر الأليم .

وشاع الأمر في المدينة ، فجاء السيد على الحماى وجاء
 نيكلسون ، وتزاحم الناس فحملوا الجثتين . وبعد صلاة
 الظهر احتفل أهل رشيد بلحنازتهما ، ووضعوهما في نعش
 واحد ، ودفنوهما في قبر واحد .

وإذا ذهبت إلى رشيد اليوم وقصدت إلى مدفن شهاب

رأيت قاعة طال القدم على جدرانها ، بها قبر نثرت عليه
الأزهار ، ورأيت رخامة كتب عليها بخط الثلث الحميل :

« هذا قبر الشهيدين »

عصفت بك الأطماعُ والأيامُ
وتبدأت عن جفئك الأحلامُ
وتركت محسوداً يصارع قلبه
حتى ترفرف فوقك الأعلام
وصيبت فوق ضريحه دمع الهوى
والحب والأمل البعيد حطام
وبعثت روحك في ثنايا روحه
فعلى شبابكما الرطيب سلام
بدر الدين على الجارم

١٩٩١ / ٥٦٩٠	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3376-5	الترقيم الدولي

١ / ٨٦ / ٥١

طبع بطابع دار المعارف، طبع ١٩٩٠

اقرا

غادة رشيد

القصة التي هزت وجدان الشباب.. كيف
تزوجت زبيدة الفاتنة من الجنرال مينو..
بينما كانت تحب ابن خالتها محمود
العسال.

وهل دفع هذا محمودًا للانتقام من
الفرنسيين! وما علاقة هذا باغتيال
سليمان الحلبي.. للجنرال كليبر!
وكيف تحررت زبيدة من مينو؟ وهل
تزوجت المناضل محمود العسال؟!
قصة تموج بالحب والوطنية.

٢/٨٧٦٠٠٠٣

قرش جنبيه
٣٠٠٠